جواد الحاج

في مدرسة القرآن

(الجزء الأول)

القصص الحق

"في مدرسة القرآن"

جواد الحاج

eKutub Publishing House
London 2024

في مدرسة القرآن

(1)

القصص الحق

جواد الحاج

"إي-كتب"

In the Qur’an school, (Part 1),
Stories of the Truthiness
BY: **Jawad Al-Hajj**
© All Rights Reserved to the author
Published by Humanity House
All yields of sales are reserved to the author.
ISBN: **9781780587462**
First Edition
London, 2024

** * **

الطبعة الأولى،
لندن، 2024
في مدرسة القرآن، الجزء الاول، القصص الحق
المؤلف: **جواد الحاج**
الناشر: e-Kutub Ltd، شركة بريطانية مسجلة في انجلترا برقم:
7513024
© جميع الحقوق محفوظة للمؤلف
كل عائدات البيع محفوظة للمؤلف
لا تجوز إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب إلكترونيا أو على ورق. كما لا يجوز الاقتباس من دون الإشارة الى المصدر.
أي محاولة للنسخ أو إعادة النشر تعرض صاحبها الى المسؤولية القانونية.
إذا عثرت على نسخة عبر أي وسيلة اخرى غير موقع الناشر (**إي- كتب**) أو غوغل بوكس أو أمازون، نرجو إشعارنا بوجود نسخة غير مشروعة، وذلك بالكتابة إلينا:
ekutub.info@gmail.com
يمكنك الكتابة الى المؤلف على العنوان التالي:
jawadhajaj303@gmail.com

الفهرس

الإهداء 8

تمهيد 11

مقدمة 13

في رحاب قصة نبي اللّٰه آدم (عليه السلام) 19

في رحاب قصة نبي اللّٰه نوح (عليه السلام) 28

في رحاب قصة نبي اللّٰه هود (عليه السلام) 34

في رحاب قصة نبي اللّٰه صالح (عليه السلام)................39

في رحاب قصة نبي اللّٰه إبراهيم الخليل (عليه السلام)....44

في رحاب قصة نبي اللّٰه لوط (عليه السلام) 55

في رحاب قصة نبي اللّٰه شعيب (عليه السلام)..............92

في رحاب قصة نبي اللّٰه أيوب (عليه السلام) 100

في رحاب قصة نبي اللّٰه يعقوب (عليه السلام) 107

في رحاب قصة نبي اللّٰه يوسف (عليه السلام) 115

في رحاب قصة نبي اللّٰه داود (عليه السلام) 129

في رحاب قصة نبي اللّٰه سليمان (عليه السلام) 133

في رحاب قصة نبي اللّٰه يونس (عليه السلام) 145

في رحاب قصة نبي اللّٰه عيسى وأمه الصديّقة مريم (عليهما السلام) 147

الخاتمة 161

القصص الحق

((لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب)) يوسف 111
(وقفات تدبر في قصص أنبياء الله ورسله كما وردت في القرآن الكريم))

الإهداء

الى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه

بسم الله الرحمن الرحيم

((وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ))غافر: ٧٨

بسم الله وكفى والصلاة والسلام على رسوله المصطفى وأشهد أن لا إله الا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الأمين وآله الطيبين وصحبه المكرمين ومن سار على دربه الى يوم الدين..

تمهيد

سنقرأ في هذا الدرس بإذن الله (جل شأنه):

- آدم (عليه السلام).. في أولى الرسالات وهو يتسلم لواء الاستخلاف في الأرض وبداية جولات الصراع مع إبليس (لع) بخبثه ومكره وغوايته.. الصراع الذي أذن الله (تعالى) أن يمتد حتى يرث الأرض وكا عليها..
- نوح (عليه السلام) حيث الصبر والثبات على طريق الدعوة الى الله تعالى حتى آخر الأنفاس ورحلة جهاد طويلة وشاقة مع آخر لا حدود لعناده..
- هود (عليه السلام) في توكله واعتصامه بالله تعالى مع عاد المتجبرة وثقافة (من أشد منا قوة).
- صالح (عليه السلام) وناقة الله وفتنة ثمود التي انتهكت الخطوط الحمراء.
- ابراهيم (عليه السلام) وهو يرسخ أسس عقيدة التوحيد لبشرية ناشئة في دعوة هي الأكثر تنوعا في بيئاتها وطرق نشرها وعظيم آثارها..
- لوط (عليه السلام) ورسالته الأخلاقية مع قوم ابتكروا أولى صور الشذوذ وعنوان رسالته ارجاع الفطرة الى طبيعتها...
- موسى (عليه السلام) حيث التفاني المطلق في تبليغ الرسالة والثقة التي لا حدود لها بالله (عز وجل) في رحلة جهاد مليئة بالمحطات الشاقة والمؤلمة حتى آخر الأنفاس..
- شعيب (عليه السلام) في دور استثنائي وهو يؤدي رسالتين في محاربة الفساد الاقتصادي والاخلاقي...

- أيوب (عليه السلام) وهو يعلم البشرية دروس عملية في الصبر والشكر ليكونا شعارين للدعوة الى الله تعالى.
- يعقوب (عليه السلام) وتجليات صبره الجميل وتعدد أحزانه التي تألقت بها روحه الكبيرة.
- يوسف الصديق (عليه السلام) حيث معركة النفس البشرية جمال الروح الذي فاق جمال الصورة وهو يتسامى في عالم الخلق القويم يختمها بثقافة ((لا تثربب عليكم اليوم..))..
- داود (عليه السلام) بعبوديته الخالصة لله (تعالى) وشخصيته الكبيرة وحكمته في التعامل مع الأحداث وعطاء الله العظيم...
- سليمان (عليه السلام) حيث النبوة والحكمة والعلم والقدرة والقوة والعلم وشكر النعمة وقلب سليم صيّره مملكة خالصة لله تعالى...
- يونس (عليه السلام) وذهابه مغاضبا لله تعالى ذنب تداركه باستغفار شفعه بتوحيد خالص وتسبيح ختمه بإقرار بالذنب ليكون للتائبين دليلا...
- عيسى وأمه القديسة (عليهما السلام) معجزة الولادة والوفاة، حيث البشرية تختم بعروجه المقدس مرحلة هامة تمهد للرسالة الخاتمة..

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

لقد تعرضت قصص الأنبياء والمرسلين (عليهم السلام) لكثير من التسطيح وأدخلت في ثناياها العديد من الأخبار غير الصادقة وتفاصيل مبالغ فيها فيها حط من منزلة رسل الحق وذكرت أمور لا تستحق الوقوف عليها في حين تم تخطي الكثير من الدروس والعبر الجديرة بالاهتمام...

حاولنا في هذا الكتاب قراءة قصص الأنبياء والمرسلين (عليهم السلام) كما ذكرت في كتاب الله المجيد في آياته المباركة من خلال وقفات تأمل بقدر ما وفقنا الباري (عز وجل) مستأنسين بآراء العلماء الذين شرّفهم الباري (عز وجل) في بحث السير المطهرة لرسل الله..

ولأجل أن تكتمل الصورة في ذهن القارئ الكريم هناك نقاط لابد من ذكرها:

أولا:

لا يخفى أن هناك فارق كبير بين المفهوم القرآني للقصة وبين الفهم البشري لها، ذلك أن القصة في القرآن ترتبط بالهدف وليس سرد الحدث لذا نجد تكرر نفس الحدث في آيات متعددة وكل آية كريمة تسلط الضوء على بُعد مختلف لتعطي رؤية جديدة.

ثانيا:

تغليب أو تغييب الصفة البشرية للأنبياء والمرسلين

من بين أكبر المشكلات التي واجهت الرسالات السماوية هي ان بعض العقول لم تستوعب ان يكون المرسل بشرا مثلهم وبرز السؤال الذي لم يجدوا له جوابا يقنعهم.. كيف لرسالة السماء أن يحملها بشرا

مثلنا.. يأكل ويشرب ويمشي في الأسواق ويجري عليه ما يجري عليهم من تغير في الحال..راحوا يقيسون الأمر على بشريتهم المتدنية التي يرزحون تحت وطأة تسافلها.. يردّدون شعار إبليس الأول كيف لبشر من طين ان يكون محلا للتشريف الألهي؟ مع فارق كبير فإبليس أراد أن يحط من قدر بن آدم ليعلو بشأنه فيما أرادوا هم الحط من قدر بشريتهم لا غير..

مقابل ذلك ظهراتجاه مناقض تماما وان كان مماثلا له في الضلال وهو تقديس الأنبياء وإضفاء الصفة الربوبية عليهم، ولم تخل صفوف المسلمين من الضلال والتظليل فظهرت بعض الأفكار المنحرفة فمن تجرأ على أنبياء الله (عليهم السلام) ونسب اليهم ما يليق من الأفعال والأخطاء الفاحشة اليهم والتي لايتصور لأسوياء الناس ارتكابها..

ثالثا:

أن كل قصة من قصصهم (عليهم السلام) كانت تسلط الضوء على ظاهرة أو أكثر من ظواهر الانحراف والفساد.. في دروس احتوت أقصى درجات التعليم والعبرة.. منظومة من الأخلاقيات الإلهية يجسدها النبي المرسل...والأحداث الحرجة التي تمر بها الرسالة هي مواقف ليست أسيرة لحظتها بل هي مواقف قد نجدها تتجسد هنا وهناك من حياتنا..والتصرف المثالي إزاءها هو تصرف النبي والمرسل... وهذا هام جدا..

رابعا:

رسالات السماء..تقوم على أساس الدعوة بالتي هي أحسن والتمسك بالخلق القويم.. ونكران الذات والصبر والفناء في الرسالة والإخلاص في أداءها والحرص عليها.. أهم معالم الشخصية الرسالية.. وأمّا إستراتيجية رسل الحق فقوامها الصدق ووضوح

المبدأ وهي إستراتيجية لا تقبل التكتيك وأنصاف الحلول أو المساومات او تدخل الأهواء الشخصية والمصالح الذاتية....

بالمقابل فأن خصوم رسالات السماء.. واضحي المعالم متشابهين في صفاتهم قد تتنوع بيئاتهم ولكنهم ينتمون لثقافة واحدة ومنهجية مشتركة فثقافة التسفيه والتحقير والاستخفاف بالآخر والاستهزاء والإيذاء النفسي والجسدي علاوة على الكفر والعناد والمراوغة والخداع والنفاق هي إستراتيجية ثابتة لقادة الانحراف والضلال..

بين هذه الخصائص المتناقضة والمعالم المتباينة.. بين أخلاقيات السمو والارتقاء وأخلاقيات التسافل والإخلاد الى الأرض.. بين جوهر الإنسان الذي كان محل التشريف الإلهي وبين الإنسان ذو النفس الأمّارة بالسوء التي صارت مرتعا للشيطان.. بين هاذين البعدين المتنافرين رسمت حدود دائرة الصراع والذي بدأ من آدم (عليه السلام) الى قيام الساعة..

قد نفتقد المرسلين أشخاصا ولكن يجب أن لا نغيبهم مبدأ وفكرا...بالمقابل فإننا قد نجد أعداء الرسل هنا وهناك وعلينا أن نتعامل مع منهجهم الخاطئ الآثم بمنهج أولياء الله تعالى..

خامسا:

ان المهمة الكبرى لرسالات السماء هي إيقاظ الفطرة التي طُمست وإصلاح بذرة الخير المودعة أصلا في نفوس البشر.. وإرجاع تلك الفطرة الى أصالتها وتنقيتها مما شابها من اعتقادات فاسدة وممارسات منحرفة..

بمعنى ان الأنبياء والرسل بعثوا لاستعادة الأصل ولم يأتوا ببرامج مبتدعة..بل هي دعوات انطلقت من الإنسان لتعود اليه تحرره من قيوده وعبودية الأهواء والآلهة المصطنعة ووضع الحجر الأساس لبناء الشخصية ومن ثم ترسيخ القيم لذا نجد ان الرسالة تركز على بناء القاعدة وهي الإنسان ذاتا وروحا أكثر من الحرص على التوسع

الأفقي وكسب القاعدة الجماهيرية العريضة على حساب هشاشة البناء الداخلي للفرد... كذلك..
لم تكن الدعوة الى الله (عز وجل) والتي حمل لواءها الأنبياء خطابات إنشائية وشعارات نظرية.. مثلما لم تكن نظريات عقيمة نائمة في بطون الكتب أو دعوات تغيير عاطفية سلبية الطرح أو تأتي بأنصاف الحلول بل أنها منهج متكامل ومنظومة شاملة للقيم الروحية والفكرية وبرامج عملية لمختلف نواحي الحياة..

سادسا:
على هامش القصص المباركة تبرز على مسرح الأحداث شخصيات مؤثرة من كلا المعسكرين (الخير والشر) هي نماذج بشرية تظهر خلاف المألوف والمتوقع.. ففي بيئة إيمانية كبيئة نبي الله حيث أجواء الهداية والرشاد تظهر شخصية منحرفة ضالة تستحق الغضب الإلهي في حين تنشأ شخصية أخرى في أجواء فاسدة مليئة بطغيان اللذة وزخرف الدنيا ولكنها لا تتأثر بتلك الأجواء بل وتتمرد عليها وتعلن ولاءها لصف الموحدين..
أنها حجة الله تعالى على عباده وعبيده.. أولئك الذين يتذرعون بالموانع المصطنعة مبررين كفرهم وانحرافهم وردا على تلك النظريات التي تفسر الانحراف على أساس البيئة والوسط الاجتماعي الذي يعيش فيه الفرد.. وبالوقت الذي لا أحد ينكر دور البيئة في بلورة المنهج السلوكي للإنسان ولكن ذلك الدور ليس بالقدر المحتم وهو طوق قابل للكسر عن وجدت إرادة للتغيير..

سابعا:
سنلحظ من خلال قصصهم (عليهم السلام) أنهم يشتركون في المنبت الاجتماعي، من واقع الأغلبية الاجتماعية فهم لم يأتوا من الطبقة المترفة.. هذه الطبقة التي كانت على الأغلب متزعمة لمعارضة

الرسل ودعوات التغيير التي تهدد مصالحها الدنيوية التي بنيت على جماجم المستضعفين ودماء وعرق وكرامة المحرومين..

يأتي النبي المرسل من وسط الغالبية متحسسا آلامها وآمالها حاملا معاناتها منقذا ومخلّصا... وحتى الأنبياء الذي قدّر لهم بما تتطلب منهم الرسالة أن يعيشوا أجواء النعمة الظاهرة والخيرات الدنيوية فانهم لم يكونوا بمعزل عن العامة وهمومها بل أنهم جعلوا من متطلبات رسالتهم توظيف تلك النعم لخدمة عباد الله.. فيما لم تتمكن الدنيا بزخرفها من الاقتراب من حدود نفوسهم الكبيرة والتي كانت مملكة خالصة لله تعالى..

مثلما أن هناك علاقة وثيقة بين منهج الإنسان السلوكي والبيئة التي يترعرع فيها.. كذلك فإن طبيعة المهنة التي يزاولها الإنسان لها تأثير كبير في منهجه الحياتي والتربوي.. لذا فإننا نجد معظم الأنبياء كانت مهنتهم الرعي..لماذا الرعي تحديدا؟ ربما لان تلك المهنة علاوة على كونها تربي النفس على التواضع ومواساة ضعفاء الناس فإنها تمثل للنبي المرسل دورة إعداد روحي بما توفره من أجواء مناسبة للتأمل والتفكر والذكر ومناجاة الباري (عز وجل) بعيدا عن صخب الحياة.. أجواء لا تتوفر في مهنة أخرى..وربما لأن رعي الأغنام تحديدا يمثل ممارسة فعلية للقيادة والإحساس بالرعية وإعداد عملي لفترة قادمة من حياة المرسل..

ثامنا:

إن كل رسالة من رسالات السماء كانت لبنة في بناء شامخ أسمه الدعوة الى الله (تعالى)..وكل الأنبياء كانوا دعاة في طريق التوحيد وكل مرسل مكلف بمهمة أداها على أكمل وجه لا فرق بين أحد منهم وجميع الرسالات كانت ممهدة لظهور الرسالة المحمدية الخاتمة.. تلك الرسالة التي تكمل البناء وتحقق نظرية الاستخلاف الإلهي

بظهور القائم بأمر الله (عجّل الله فرجه) وإعلان دولته المباركة التي تحقق كل أهداف الرسالات السماوية..

تاسعا:

قد يتبادر الى الذهن ومن خلال سير الأحداث.. وملاحظة القوى المادية وموازينها الظاهرة.. ان الأنبياء والرسل كانوا يمثلون جبهة الدفاع في المواجهة لكن الحقيقة عكس ذلك تماما.. فإن الأنبياء يمثلون خط السماء والنور الذي مهمته طرد الظلام الذي يمثله خط الكفر والضلال..وان عدم إظهار القوة المؤيد بها النبي المرسل هو من مقتضيات الرسالة.. وهناك تدرج في إظهارها..فغرض الرسالات هي هداية البشر بقناعة فكرية تامة وليس قهرهم.. وحتى الاستئصال والاجتثاث الذي حصل للأمم الغابرة لم يكن محض عقوبة بقدر ماكان لحكمة عظيمة سنوضحها حين الخوض في أحداثها..

على هامش هذه النقطة..... ان ظهور المعجزة وهو أمر خارق للعادة وللقوانين الطبيعية للمادة يأتي لتثبيت مبدأ رسالي ولا يترتب على حدث وليس وفق رغبة النبي او تدخل منه والنبي الذي يطلب منه إظهار معجزته يقوم بتفويض الأمر الى الحق سبحانه ولا يعرف توقيت الاستجابة له.. نفيا لأي اشتباه قد يرد على الأذهان ان المرسل يملك استقلالا ذاتيا في إيجاد الأمر او دفعة..

والحمد لله رب العالمين

في رحاب قصة نبي اللّه آدم (عليه السلام)

بسم الله الرحمن الرحيم

((وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون * وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين*قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم * قال يا آدم أنبئهم بأسمآئهم فلما أنبأهم بأسمآئهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون*وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين * وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين*فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين*فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم* قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون))البقرة: ٣٠ – ٣٨

وقفات التأمل

(1)
((قال إني أعلم ما لا تعلمون))

من بين أهم عوائق الطريق نحو المعرفة هي الافتتان بالعقل البشري المحدود..

كثير من الإشكالات العقائدية والعلمية منشأها أن الانسان يريد أن يتوصل الى الحقيقة المطلقة بعقله وكم من الجدل خاضته البشرية بما لا تفقه ولا تعلم فكذبت الرسل وقتل الصالحون وسفه العقلاء لأنهم جاءوا بعلم لم يدركه أهل زمانهم. لذلك كان الايمان بالغيب من أعظم أركان الايمان.

هناك أشياء تستعصي على إدراك الانسان وبالتالي كان التسليم بجهلها من مصاديق الإيمان ولا يقدح ذلك بمكانة العقل وأهميته.

(2)

((ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولاتقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين)) الأعراف19

- إن العهد كان لآدم دون حواء مما يشير الى طبيعة المهام الموكلة على عاتق كل منهما، ولأنه مسؤولية وأمانة عظمى بالتالي يتطلب العزم وقوة التحمل.
- لقد كان تحذير إلباري (عز وجل) لآدم بعدم الاقتراب من الشجرة فضلا عن تذوقها لإن الطبيعة البشرية ما إن تقترب من المحذور حتى تقع فيه.
- إن الله (سبحانه وتعالى) أباح لآدم كل شيء سوى الاقتراب من الشجرة المحرمة مما يدل على أن الأصل في الأشياء الإباحة وما حرم هو الاستثناء الذي حرم لغاية الاختبار والفتنة.

(3)

قوله تعالى: **((فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطآن لكما عدو مبين))** الأعراف22

1. عبارة (فدلاهما))هنا تصوير دقيق ومبهر كأنه يصور لنا آدم على حافة هاوية المحرم وأن الشيطان قد قادهما متبعين خطواته بالتزيين والإغواء حتى وقفا على شفا الهاوية وفيه اشارة الى إن كل من آدم وحواء قد وقعا في فخ اللعين لا كما يصور في الأدب الشعبي من أن حواء هي من ساعدت على إغواء آدم.

2. إن مجرد التذوق وانتهاك حرمة الأمر وكسر الحاجز النفسي للمعصية يعني الوقوع في المحذور فاستحقا عتب ولوم الرحمن.
3.السوءة هي العورة ما يستتر ولا يريد لأحد الإطلاع عليها.. لقد كان آدم وزوجه يتمتعان بلباس التقوى الذي يستر عنهما سوءتهما قبل أن ينتهكا الخط الأحمر ويقعا في المحظور..
إن أمر كشف العورة وإن كان ماديا بصورته ولكنه معنويا بدلالته، فانتهاك ما حرّم الله يسلب من الإنسان غطاء وستر التقوى الذي يستر عورته وحرمته التي كانت مصونة بحجاب الالتزام بالمنهج..
وحين انكشفت العورة راحا يسترانها بالفطرة المودعة فيهما مما يدلل على ضرورة التستر بعد انكشاف العورة (حقيقية أو معنوية).
4. لقد كشف لنا الباري (عزوجل) الأسلوب الماكر للشيطان وكيف أنه يحاول أن يهتك ستر العورة المستترة بلباس التقوى وإنها المرحلة الأولى في الغواية إذا فشل الإنسان في الحفاظ على ستر عورته سقط في المحذور وانتهك الحرمات الأخرى.

(4)

قوله تعالى:**((وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين))** الأعراف21

إن الإنسان بفطرته يميل الى الإعتقاد بالقسم (اليمين) وغالبا ما يولد القسم ثقة واطمئنان نفسي لدى المقسم له، وكلما كانت الفطرة نقية صافية كان الوثوق كبيرا..
آدم بنقاء فطرته وصفاءها لم يكن يعتقد ـ بحكم عدم وجود التجارب الحياتية لديه ـ أن هناك من يجرؤ على القسم بالله كذبا فخدع بحسن ظنه الذي لم يكن بمحله ولا يشفع له.. وبإسقاط ذلك على واقعنا نرى كم من بني آدم خدعوا بأقسام كاذبة من شياطين الإنس. وعلى كل حال لم يكن ذلك عذرا كافيا آدم بعد أن حذره العزيز الحكيم من عدوه ومكره.

(5)

((قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين)) الأعراف24

1. يهبط آدم ومعه حواء ويهبط ابليس وشتان ما بين هبوط وهبوط، هبوط آدم وحواء كان مصحوب بندم وتوبة صادقة وهو قوس نزول يعقبه قوس عروج وصعود لدرجات التكامل بعد اكمال الرسالة فيما هبوط ابليس بداية تسافل وانحدار نحو دركات الغضب الإلهي..
(لا ننتكس ولا نقنط إن هبطنا وليكن هبوطنا نقطة انطلاق لرحلة عودة من جديد)..
2. الهبوط هنا قد يكون ماديا وقد يكون معنويا وقد يصدق الأمران معا.. ورغم قسوة وألم ما ترتب على الهبوط المادي الا أن الهبوط المعنوي من جنة القرب كان أشد وقعا على نفس آدم الذي حرم من خيرات الجنة المعنوية التي كان ينعم فيها ولكن مما يخفف وطأة هذا الحرمان على نفسه هو أمله بالرجوع الى جوار محبوبه في جنة الخلد الأبدية...

(6)

((وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ))
المائدة 27

من الأحداث الهامة التي وردت في قصة البشرية الأولى كانت القضية رقم (1) في تاريخ الأنسان على هذه المعمورة كانت أول حادثة جنائية عمدية الجاني كان قابيل التي أخذ الدروس الأولى من عدو الله ابليس وأعانته على ترجمتها الى فعل شيطاني نفسه الأمّارة بالسوء ليفتتح سجل الأجرام البشري.. ولعل ما يميز هذه الجريمة:

- أنها كانت أسرية حيث وقعت في محيط أول كيان أسري بشري بين أخوين شقيقين...
- دافع الجريمة كان نفسيا كان ولازال وسيبقى سببا رئيسيا لصراع بني آدم في كل العصور كان الحسد والحقد والغيرة فلو نظرنا لحقيقة دوافع القتل لما تعدت مثلث الإجرام هذا(الحسد- الحقد - الغيرة).
- ان الجريمة نتاج عوامل تتراكم وهواجس اجرامية تتفاعل لحظة ارتكابها هي لحظة الذروة التي تصل اليها بتنفيذ الفعل المادي أما ركنها المعنوي فهو قائم ومتحقق قبل ذلك بكثير فباستثناء الجرائم التي تحدث بانفعال نفسي مفاجئ،

تقوم الجرائم العمدية التي يسبقها اصرار وتحضير للجريمة على تهيئة نفسية واستعداد وذلك بتمهيد وتقبل لفكرة الجريمة،
فعبارة (فطوعت له نفسه) يعجز الوصف عن سبر أغوارها وهي تمثل أهم نظرية لعلم الإجرام النفسي حيث أن الجاني (حين يرتكب جريمته الأولى) مهما بلغت درجة اجرامه يعيش صراعا نفسيا بين فطرته الرافضة للشر والتي أودعها الباري (عز وجل) وبين النفس الأمارة التي يعينها الشيطان..

والتطويع هو اقتراب تدريجي نحو الفعل تبدأ بوسوسة ثم بهمّ ثم ارتكاب الفعل بمعنى آخر أن الفعل المنافي للفطرة لا يمكن أن يرتكبه الأنسان سواء أكان الفعل أخلاقيا أو جنائيا الا بعد تخطي الحواجز النفسية الفطرية وهذا جل عمل الشيطان الذي يزين للنفس لتتفاعل معه لينتج أثرا خارجيا وسلوكا منحرفا لصاحب النفس الذي يطيعها حين لا يمتلك الرادع المؤثر أو الكابح والذي يتلخص في التقوى ومخافة الله عز وجل.

نعود الى سبب الجريمة المباشر وهو وإن بدا غريبا ولكنه حدث ويحدث فجرائم التاريخ الكبرى قامت على الحسد كيف يتقبل الله من المتقين وبدلا من إصلاح أنفسهم يقوم الفاسدون والمفسدون بقتل الصالحين كي يتخلصوا من وجودهم المادي في الحياة وان لم يتمكنوا من التخلص من وجودهم المعنوي الذي يزداد تأثيرا بعد رحيلهم.. حدث ذلك مع قابيل.. وهناك شعور يتولد من الحسد ومعه شعور بالدونية والتصاغر واحتقار الذات كل ذلك وغيره يدفع المفسد بالأنتقام والنيل من الصالح..

ولعل السؤال الذي يستدعي التفكر..

لماذا حمّل قابيل أخيه مسؤولية عدم تقبل قربانه.. ما هي علاقة هابيل بقضية تقبل أو عدم تقبل القربان أصلا؟

حاول بعض المفسرون الإجابة بأن قابيل أتهم أبيه آدم بمحاباة هابيل بالدعاء له بتقبل قربانه وعدم الدعاء لقابيل.. لكن تلك التفسيرات لا تجيب اجابة شافية على السؤال: ما الذي أثار قابيل وما هو ذنب هابيل تحديدا.. ما هو ذنبه بتقبل قربانه؟ الذي نراه ما قدمنا له من عدم التقبل كانت لحظة الذروة التي فجرت الإنتقام إذ أن هناك تراكمات لصراعات نفسية كان يعيشها قابيل حقدا وحسدا وغيرة على أخيه.. القضية تحتاج لمناقشة علمية في علم النفس كي تتضح معالمها،

على العموم إن دافع جريمة قابيل وإن كان عدم تقبل القربان مظهرها الخارجي الا أن سببها الحقيقي كان نتيجة تراكمات نفسية كان يعيشها المجرم هيأت جو ارتكاب جريمته..

(7)

((لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ)) المائدة 28

بعد أن قرر قابيل قتل أخية ماذا كان رد الضحية؟ لقد كان ردا ردا عجيبا يلخص لنا الفارق بين دنيا المجرمين وأصحاب رايات الانحراف ودنيا أهل الله والداعين اليه.. قال (لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ) ليؤسس مبدأ التعامل مع الخصم الباغي بسط اليد للقتل سوف لا يقابله بسط اليد للقتل وهنا يبرز السؤال حري بنا أن نتوقف عنده..

ما الذي كان يقصده هابيل الضحية تحديدا؟ هل يعني أنه سوف لا يدافع عن نفسه وأنه سيستسلم للقاتل أن يقتله !.. بالتأكيد الجواب بالنفي فالعقل والفطرة يرفضان ذلك فمبدأ الدفاع عن النفس مبدأ شرعي،

لنعيد قراءة العبارة القرآنية بدقة (لئن بسطت اليّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين)،

الذي رفضه هابيل هو بسط اليد للقتل لأنه يتنافى مع الخوف من رب العالمين هنا الأمر يتعلق برادع نفسي هو الخوف من الله حتى وإن ملك القدرة على الرد بمعنى أدق أن المؤمن بحركته وسكونه ضابطه ليس نفسه وشهوة الرد والإنتقام لديها وإنما رضا ربه لأنه يؤمن بعالم آخر وجزاء آخر وحتى في رده فإنه محكوم بعدم تجاوز حد الدفاع المشروع عن النفس..

(8)

((فَبَعَثَ اللّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ)) المائدة 31

في صورة بالغة الدقة والتأثير ترسمها الآية الكريمة لغراب وهو طائر له رمزيته في الأذهان يبحث في الأرض ليدفن شيء ما ليلتقط قابيل الإشارة وينتبه الى أمر فطن اليه حيوان طائر كالغراب لم يتفطن اليه (هو) رغم امتلاكه العقل فيأخذه الندم ويلوم نفسه لعدم فطنته وعبارة (أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب) فيه دلالة أن قابيل كعادة كل المغرورين قد ركز شخص الفاعل الذي استخف به وهو الغراب ولم يركز على ماهية الفعل وهو مواراته للشيء والسبب إن قابيل بضعف ايمانه قد نسب الفعل للغراب ولم يفقه الى من بعث الغراب وهو مسبب الأسباب.. فالنملة والهدهد والغراب كلها كائنات تبعث برسائل تعليمية للبشرية في سيرها نحو كمالها.. فلو سأل قابيل نفسه من أرسل الغراب؟ لعرف أنه الله تعالى وأن الغراب نفسه لا يعرف أنه مرسل برسالة تعليمية لقابيل.. هنا نفتح قوسا لنقول..أن البشرية في رحلة سيرها التكاملي تمر بأطوار تعليمية بأسباب لا تدرك أن الله تعالى هو منشأها تماما كالغراب الذي سيعلم البشرية كيف تدفن موتاها وكقابيل الذي نسب الفعل الى الغراب.. فمن اكتشف الكهرباء وقانون الجاذبية والنسبية وجميع الأكتشافات الحديثة لا تخرج عن أسباب مقدرة كل ما يفعله البشر هو إفساد تلك الأكتشافات بسوء الأستعمال...

كذلك.. فكلمة ليريه..

تبرز أهمية الحس والتجربة وعدم اكتفاء الأنسان بالعلوم النظرية والمعارف التي يتحصل عليها بالتفكر..و قد حث القرىن الكريم في أكثر من مورد على تدبر الإنسان في المخلوقات من حوله..

قبل أن نغادر جريمة قابيل فعبارة (فأصبح من النادمين) تدل على أي مدى وصل اليه هذا المجرم فهو لم يندم على قتل أخيه (مع أن بعض المفسرين من لم يستبعد أن ندم قابيل يجوز حمله على قتل أخيه لكن ظاهر لا يوحي بذلك بقرينة (أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب)...) لقد كان ندم قابيل أن كبرياءه قد جرح واستنكف أن يكون أقل معرفة من الغراب ولو قدر للغراب أن يفصح عن مشاعره لأستقبح مقارنته بقاتل لأخيه..ولعل البعض ممن يتشبه بقابيل لا يأسف لضياع دينه ولكنه ينتفض إن انتقص من قدره في الدنيا...

في رحاب قصة نبي اللّه نوح (عليه السلام)

بسم الله الرحمن الرحيم

(1)

((وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيل)) هود: 40

يربط الكثيرون بين نجاح الدعوة (أي كان نوعها) وبين جماهيريتها وأتساع رقعتها وأعداد أنصارها وهو فخ وقع في شراكه بعض الدعاة للأسف فراح مؤشر هممهم يتأثر هبوطا وارتفاعا مع أعداد المناصرين بل قادهم الحرص على اتساع جماهير دعوتهم على الوقوع بأخطاء جسيمة تمس جوهر مبادئهم الأمر الذي أدى أفول نجم تلك الدعوة..وهو أمر نجده واضحا في الدعوات التي تقوم على أساس حزبي أو دعائي دنيوي وإن ارتدى زيا دينيا...

فيما نرى أن الدعوات الخالصة لله تعالى وفي مقدمتها دعوات السماء تحرص على ترسيخ مبادئها في نفوس المؤمنين بها وبنائهم بناءا عقائديا صحيحا يكونوا معه مهيئين على تحمل أعباء الرسالة..والداعية من جهته ـ وان كان يسعى جاهدا من أجل هداية الناس جميعا ـ ولكن إن لم يحصل ذلك فإنه لا يبتأس ويواصل دعوته بذات الهمة لأنه يركز على تكليفه الشرعي بإبلاغ رسالته على أكمل وجه وأقصى جهد.. وعليه أن يمتلك من الصبر ما يكفي ولا يتعجل النتيجة.

(2)

((قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا * وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ

وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارً * ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارً * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارً)) نوح 5- 9

لم تكن معركة رسل الله مع أقوامهم معركة شخصية وهذا اعتقده السفهاء فعرضوا عليهم المناصب والهبات ترغيبا وتطاولوا عليهم جسديا ومعنويا ترهيبا.

كان سلاحهم الصبر والثبات على المبدأ..والعزم والاصرار في تبليغ الرسالة توكلا وثقة بالله..

لم تكن معركة تخضع لحسابات بشرية أو مساومات على أنصاف الحلول، مثلما لم تكن دعوات تبحث عن انتصارات شخصية وهمية مؤقتة.. قد تطول تلك المعركة أو تقصر بحساب الزمن.. قد تختلف أنماطها وتتغير.. قد تتعدد بيئاتها.. لكن مبدأها واحد.. شعارها واحد.. هدفها واحد..

ما حدث مع نبي الله نوح (عليه السلام) كان استثنائيا من حيث طول مدة الرسالة ومدى الصبر والثبات الذي ليس له نظير.. دعوة امتدت ما ناهز تسعة قرون ونصف القرن.. قام يدعو قومه لعبادة ربهم الواحد الأحد لا يشركون به شيئا دعاهم جماعات وأفرادا في مجالسهم العامة وجلساتهم الخاصة في ليل ونهار في السر والعلن بهمة منقطعة النظير وعزم لا يلين وثقة راسخة بالله رغم ما كان يلاقى من صنوف الأذى النفسي والجسدي... ثلاثمئة عام من الدعوة!

ولكن ماذا كانت نتيجة هذا الإصرار في التبليغ؟

كانت النتيجة محبطة تماما بالحسابات البشرية..لقد كان عدد المؤمنين بدعوته يتناقص وإنه لأمر مثير حقا.. فعادة أن عدد المؤيدين لكل دعوة يبدأ بالتصاعد التدريجي بمرور الزمن وتلك قاعدة شذ عنها قوم نوح لكن ذلك لم يكن لينال من عزيمة وهمّة هذا الداعية النبي.. بل زاده إصرارا وتصميما وثباتا..

درس بليغ لكل داعية يسير في طريق الدعوة الى الله وتتأثر معنوياته هبوطا وصعودا مع قلة أو كثرة أتباعه ليكن همك من تدعو حسبك الله الذي يرى ويسمع وصدق نيتك في التبليغ ولا تنظر الى من تدعوهم مع حرصك على دعوتهم وفرحك القلبي باستجابتهم ولكن لا يكونوا كل همك زاد عددهم أو نقص.

(3)
(مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا)

مسألة بشرية الرسل والتي أشرنا اليها في المقدمة مسألة افتتن بها كثير من الناس فهم يقيسون قياسا فاسدا على بشريتهم فيحسبون تشابههم مع الرسل والأنبياء في الشكل والشأن الدنيوي لا يعطي أفضلية لأحد على آخر تلك النظرة المادية والحسية قادتهم لهكذا تصور خاطئ، وقد غفلوا جانبا جوهريا هو الأهم الجانب الروحي وفيه يتفاضل البشر قربا وبعدا وتشريفا..

((وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا))

انه شعار يرفع في كل زمان ومكان انه التمييز الطبقي في السر والعلن..

فحسب نظرية المترفين الفاسدة.. أنهم طبقة مميزة يترفعون عن مشاركة عوام الناس في تفكيرهم كما يأنفون عن مشاركتهم في عيشهم فهم السادة ومن دونهم (أراذل) سفهاء الرأي من طبقات مسحوقة.. فكيف لهؤلاء المسحوقين وأولئك المترفين ان تجمعهم عقيدة واحدة..

إنها قضية خطيرة.. من أهم العقبات التي واجهت الدعوة الى الله تعالى..

فحسب ثقافة التكبر والاستعلاء كما للمترف الشريف ملبسه الفاخر ومأكله المميز ومسكنه الفخم ومنزلته الاجتماعية الراقية لابد أن

يكون له عقيدة خاصة به تليق به ويأنف أن يشترك معه فيها الأراذل من عوام الناس وبسطائهم.. منطق منحرف سجلت براءة اختراعه لقوم نوح (عليه السلام) وأستمر رفعه كثيرا فيما بعد...

(4)

((حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل)) هود: ٤٠

لقد كان استثناء الابن تحديدا يشكل مشكلة لنبي الله لا تخلو من أذى نفسي.. فهو (عليه السلام) وان كان ولاءه لله تعالى رضا وسخطا لكنه كان يحمل عاطفة الابوة.. لقد تمنى نوح الأب ان يكون ابنه معه في السفينة تلك الأمنية التي لم تقتصر على أبنه بل تمناها لجميع قومه الضالين بأن يعودوا لرشدهم.. غاية الأمر أن نبي الله لم يكن يعلم بسوء خاتمة أبنه وما آل اليه..

و في محيط الصالحين قد تظهر هناك حالات شاذة تثير الاستغراب كيف يمكن للمحيط العائلي الملتصق بنبي الله وضمن الدائرة الخاصة به أن يظهر ابن شاذ او زوجة غير صالحة كيف لذلك الابن أو تلك الزوجة إلا يتأثرا بالنبي ورسالته وحتى خلقه على اقل تقدير..؟ ما هو التفسير المنطقي لهكذا حالات؟

هناك مسألتان لابد من اصطحابهما في محاولتنا لمناقشة الأمر:

الأولى: السنّة التكوينية لله تعالى في خلقه في إخراج الطيب من الخبيث وإخراج الخبيث من الطيب ذلك الاستثناء الذي صار قاعدة والذي نجد له حضورا ليس في عالم الإنسان فحسب بل في كل العوالم من حولنا.. والأولياء الصالحين بلحاظ بشريتهم تجري عليهم من قوانين عالم الإمكان ما يجري على غيرهم..

الثانية: إن وجود الشيطان ليس وجودا هامشيا في حياة البشر.. حقا إن أولياء الله وبحكم عمق ارتباطهم بالحق سبحانه ليس له سلطان عليهم, إلا أن اللعين لا ييأس منهم وحين لايجد منفذا الى عوالمهم المقدسة فإن مهمته تتحول الى البحث عن مناطق رخوة في محيط الولي الصالح.. لتعكير صفو العلاقة بينه وبين محيطه العائلي الملتصق به.. وقد يجد اللعين تلك الثغرة في الزوجة أو الولد أو غيرهم..

تبقى هناك مسألة أخرى هامة

إن تعامل الولي بمحيطه العائلي تحكمه قواعد خاصة.. فهم لا يتعاملون مع الغير أصحاب النوايا السيئة حتى تتجسد تلك النوايا الى أفعال وتتخذ مظهرا خارجيا بتصرف قولي او عملي حينها فقط تتحدد ردة فعل ذلك الولي الصالح وبما ينسجم مع الحكم الشرعي بعيدا عن العاطفة والانفعال او تدخل الجانب الشخصي.. إن منهجية تربوية كهذه يجد فيها المنحرف القريب من الولي الصالح مساحة كبيرة ليمارس دورا نفاقيا مظهرا الولاء مبطنا التمرد كما حصل لأبن نوح النبي.

(5)

((يا نوح إنه ليس من أهلك)) هود 46

عبارة (إنه ليس من أهلك) عميقة المعنى وتستدعي كثيرا من التأمل وهي تتعلق بفكرة النسب الحقيقي كما يريده الله تعالى فطبقا للمنهج الالهي ان النسب السببي لا تكون له قيمه أو وزنا اذا تعارض مع قاعدة الولاء لله والأيمان بعقيدته ومنهجه وتشريعاته...

((إنه عمل غير صالح)) هود 46

كيف يتحول العبد العاصي الى ذات العمل غير الصالح فيفقد شخصيته ويكتسب صفه عمله الفاسد ليصبح كتلة متحركة من فساد هي قضية ترتبط بارتكاب المعاصي والآثام وكيف إن إدمانها والإصرار عليها يطمس فطرة النفس البشرية ويحول وجودها الى ذات العمل غير الصالح بحيث يتعدى الأمر وصفها بأنها تعمل الخبائث بل تتحول النفس الى تلك الخبائث بذاتها وطبيعتها المقيتة.. فحين يستحكم الشر بالنفس لايترك مساحة او منفذا للضوء أن يتسلل الى عتمتها فتتحول الى كتلة متحركة للعمل غير الصالح.. فأبن نوح كان نموذج بشري لمصير مخيف حين يصل العاصي الى مرحلة اللاعودة واستحكام الشر بحيث صار بذاته عمل غير صالح فضلا عن عمله..

في رحاب قصة نبي اللّٰه هود (عليه السلام)

بسم الله الرحمن الرحيم

((وعادا وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين)) العنكبوت: ٣٨

(1)

كيف يزين الشيطان للناس أعمالهم **!؟** موضوع خطير جدا وأغلب من ضلوا وهلكوا ساروا وراء خطوات الشيطان دون أن يشعروا حيث أوردهم الهلاك.. الشيطان لا ييأس من ابن آدم وهو يأتيه من حيث يحتسب ومن حيث لا يحتسب وواحدة من مكائده الخبيثة أنه يأتيه من جهة الدين فيغريه ويغويه ويمنيه ويصده عن عمل الخير قدر ما يتمكن ويعظم في عينه عمله ويدخل في نفسه العجب إن أحسن ويهون عليه تقصيرة ويقنطه من رحمة ربه إن أذنب..لقد وقعت عاد وثمودا في مستنقع الضلال واتبعت خطى الشيطان وقد كانوا مستبصرين..

(2)

((أَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً)) فصلت 15

((وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً))

الافتتان بالقوة والإمكانات المادية من أشد صور الفتنة.. وهو داء عضال يصعب الشفاء منه وسكر تطول مدة الأفاقة منه.. قد يصاب به الفرد وقد تصاب به أمة وهو ما حدث لقوم عاد..

راحوا يشيدون حضارة العمران ويبنون المصانع العملاقة ينحتون من الجبال أعمدة ضخمة لتكون أسس لأبنيتهم واختاروا الجبال الشامخة مواقع لبيوتهم الفارهة..

لقد تناقلت أجيالهم أنباء الطوفان الذي قضى على قوم نوح فاستعدوا له بأبنية رصينة عالية.. لقد عدّوا ما حصل من طوفان لقوم نوح حدثا من أحداث الطبيعة وليس عقابا إلهيا مستحقا لقوم مجرمين..

وهو خطأ ما تفتأ البشرية تقع فيه الى اليوم هم يعدّون كل ما يحصل من كوارث نتاج طبيعي لتغيرات بيئية..

يصورون الأمر على أنه صراع مع الطبيعة تهزمهم ويهزموها.. المنطق الساذج ذاته..

ثم راحوا يتحدون رافعين شعار (من أشد منا قوة).. شعار أهلك كل من رفعه على مدى الدهور.. شعار يرفعه الجاهلون المغرورون المفتونون بزهو قوتهم الزائف.. ورغم أنه شعار يدحضه الواقع حيث سرعان ما تتهاوى الحضارات البشرية واحدة تلو الأخرى تذروها رياح الزمن وتصبح أحاديث يبقي الله بعض آثارها لتعتبر الأجيال التي تعقبها الا إن هذا الشعار لازال يرفع بغرور..

(3)

((قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين إن هذا إلا خلق الأولين وما نحن بمعذبين)) الشعراء 136-138

أخطر مرحلة يصلها الإنسان في مسألأة العقيدة حين يوصد فيها باب مراجعة الذات ويصر مستكبرا على مواصلة طريق الضلال الذي اختار.. ويصبح الوعظ والإرشاد جهدا لا طائل منه مراء وجدل عقيم، فمتبع الهوى مفتون بنفسه وهو لا يسمع وان سمع لا يعي.. وحتى لو لوتظاهر بالاستماع فإنه يسمع ليجادل لا ليحاور ويقتنع.. فهو يبحث عما يدعم موقفه المتخذ مسبقا..

(4)

((قال إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون*من دونه فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون*)) هود: ٥٤ ــ ٥٦

بمقابل منهج الافتتان بالقوة المادية وثقافة (من أشد قوة) واجه نبي الله قومه بمنطق (فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون)

قال لهم يا من تتفاخرون بقوتكم أنا بينكم هل تقدرون ومعكم إلهتكم المزعومة على إيذائي؟.. يا له من تحد عجيب واية كبرى.. فهم بالفعل عاجزون عن إيذائه وهو الأعزل من القوى الظاهرية المألوفة لديهم،

ما الذي حال بينه وبينهم؟

.. إن قوة غريبة تمنعهم منه.. ورجعوا الى أنفسهم يسألوها بصمت وخيبة ما الذي أصابهم؟ لقد عجزوا تماما وظل كل منهم ينظر للآخر بذهول.. وأسئلة حائرة يتبادلونها بصمت لا يعرفون لها إجابة..

لقد سقط فجأة شعارهم.. سقط المنطق الذي آمنوا به وجعلوه محور لحياتهم.. منطق القوة والتحدي.. لاذوا بخزيهم..

(5)

((إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دآبة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم))

قيل في التوكل على الله تعالى أن تخرج من حولك وقوتك وتلجأ الى حول الله وقوته.. أن تخرج من محدودية قدرتك البشرية الى قدرة الله اللامحدودة مفوضا أمرك لله واثقا مطمئنا مؤمنا أن كل كائن مخلوق حي ناصيته بيد الله لا يستطيع لنفسه ضرا ولا نفعا فضلا أن يضر أو ينفع غيره الا بإذن الله..تلك الثقة المطلقة بالله هي من جعلت نبي الله هود أن يتحدى قومه.

(6)

((قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من ربِّ العالمين)) 67 الأعراف

درس أخلاقي كبير

بعد أن سفه وهم القوة لديهم رموا نبيّهم بالسفه لأنه جاء خلاف أهواءهم وهو اتهام رخيص للمستكبرين المهزومين فما كان رده على وقاحتهم.. نفى تهمة السفه عنه وأكد صفته الرسالية (قال يا قوم ليس بي سفاهة)، انه درس في أدب الرد وانتصار المبدأ على الانتصار للذات والتشفي من الخصم وعدم النزول لمستواه المتدني.. لقد برهن هود على عظم الرسالة والرسول وأقام الحجة الكاملة على قومه المعاندين...

هزيمة أخلاقية معنوية جديدة تلحق بالمكذبين... فالدعوة الى الله وإن كانت عقائدية في جوهرها الا أنها دعوة أخلاق وقيم سلوكية وتربية وتهذيب.

(7)

((فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين)) 25 الأحقاف

تلك المساكن التي تفاخروا بشموخ بنيانها وقوته هي ما بقيت شاهدة على حضارة دنيوية وعبرة لمن يعتبر ويبقى أمر في غاية الأهمية: كيف نتدبر إهلاك واستئصال الأمم الكافرة وعاد واحدة منها... فما أكثر الأجيال الكافرة في المجتمعات قديما وحديثا..

هل أن الاستئصال والاجتثاث الذي حدث لهذه الأمم الكافرة هو محض انتقام وعقوبة الهية أم له غايات أخرى..؟؟

ان تلك الأمم كانت أقواما مؤسسة للانحراف أرادت تعطيل القانون العام لسنن الوجود وإبداله بممارسات منحرفة.. أمم جاءت في فترات مفصلية من التاريخ الإنساني.. وجودها كان مؤسس لنظام الحياة.. وحجر الأساس الذي تبنى عليه حضارة الأنسان.. ومثلما يكون انحراف أساس البناء سببا في سقوط كامل المبنى مستقبلا فإن السماح ببقاء واستمرار تلك الأقوام المنحرفة يعني عدم قيام حضارة مستقبلية للأجيال البشرية اللاحقة...

عليه فالاستئصال ضرورة لتثبيت الأسس الصحيحة للنظام العام وقواعد البناء القيمي للإنسان....فهو إذن ليس انتقام السماء من أقوام فاسدة ومنحرفة فحسب وانمّا هو ـ ايضا ـ تطهيرا للأرض من من قيم شاذة يصبح من المتعذر استمرار الحياة التي أرادها الباري (عز وجل) ان تقوم على هذه المعمورة ولو بحدها الأدنى..

بهذا يكون الإستئصال الرحمة الباطنة وظاهرها العذاب.. وهو الاستثناء وليس الأصل في علاقة الله الرحيم الودود والحليم الذي لا يعجل ولا يخاف الفوت مع عباده وعبيده..

في رحاب قصة نبي اللّه صالح (عليه السلام)

بسم الله الرحمن الرحيم

(1)

((قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب)) 62 هود

(قد كنت فينا مرجوا قبل هذا)

التقدير الاجتماعي والمكانة الاعتبارية للشخص لا تعبر بالضرورة عن صلاح الشخصية فالرضا الاجتماعي غالبا ما ينتج عن مسايرة الأهواء السائدة فإن سار عكس التيار واتخذ طريق مخالف للقطيع تبدل ذلك التقدير الى ازدراء وتحقير وتسفيه وتسقيط.

كان نبي الله صالح (عليه السلام) من أوسط قومه نسبا وأفضلهم خلقا وقد كان محل تقدير واحترام قومه حتى صدع بالحق وجهر بدعوته لعبادة الواحد الأحد ومحاربة الكفر والشرك عندها تبدل رأيهم فيه وأصبح من المنبوذين – ذات المنطق الأعوج يتكرر في كل زمان ومكان _ لذا فالتقييم الاجتماعي لا يعتد به الا إن كان المجتمع صالحا إما إن كان مجتمعا فاسدا منحرفا فالتقدير الاجتماعي تقدير زائف لا وزن ولا قيمة له.

(أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا)

السنن والأعراف والعادات والتقاليد غالبا ما تمثل عائقا حقيقيا نحو تقبل التغيير.. حين يأنس الإنسان لعادات توارثها يصعب عليه تقبل أي فكرة تناقضها حتى وإن علم إنها خير مما توارثه، هناك استثناءات محدودة فيما يتعلق في العقيدة حيث تتدخل العناية الإلهية

في هداية من صدقت نيته ولكل بشكل عام فإن ما اعتاد عليه الناس يشكل عائقا نفسيا صعبا للدخول في عقيدة جديدة..

(2)

((قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة فمن ينصرني من الله إن عصيته فما تزيدونني غير تخسير)) هود: ٦٣

حين يكون المرء على بينة من أمره تقام عليه الحجة ويكون مسؤولا عن إداء أمانته كل بحسب تكليفه الشرعي والأنبياء والمرسلين مع سمو مكانتهم وعظم قدرهم اختصهم الله (عز وجل) بكرامة الرسالة وفضل الإيمان برحمة منه (سبحانه) وهم أعرف الناس بربهم وأخوفهم منه لذا فالرسالة ميزة بلا سبب ولا هبة دون دون استحقاق ولا حصانة ولا امتياز كما يفهم الجاهلون..

لقد أراد نبي الله من محاورتهم والتنزّل وفق منطقهم مهما بلغت سذاجته أن يعطينا درس عقائدي معنوي أن الله لا يحابي أحدا من خلقه ولا يستثني أحدا من أحكامه كي لا يغلو أحد في منزلة المرسلين ولا يعتقد فيهم ما لم يأذن به الله ويرضاه.

(3)

((اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ)) 47 النمل

(إنّا اطّيرنا بك) التشاؤم من الأمراض النفسية التي يبتلى بها غير المؤمن بالله لأنه لا يربط السبب بالمسبب فلا يرى سوى نصف الحقيقة أو جانبها المظلم ولأنه سيء النية فإنه ينسب سبب ما يراه الى غير مسببه الحقيقي.

والتطير نهى عنه الإسلام واعتبره منافيا لمبدأ الثقة بالله وتسليم الأمر إليه (سبحانه) وأن الله هو الضار وهو النافع وإليه يرجع الأمر كله..

و هو شعار بائس لطالما رفع في التاريخ بوجه المصلحين وعادة ما يرفعه أولئك المترفون الذين تضررت مصالحهم غير المشروعة والذين يرون أي تبدل في الأوضاع الاقتصادية مصدر شؤم عليهم.. وهم لا يرمون باللوم على سوء سلوكهم ونواياهم بل على الداعية المصلح الذي هو مصدر كل خير وفلاح في الأمة..
لقد رفع هذا الشعار بوجه الأنبياء والأولياء المصلحين تارة كفرا صريحا من المشركين وتارة أخرى نفاقا وتلميحا من المنافقين.. وأحيانا يرفعه المحسوبين على صف الأيمان حين يتسلل الإحباط للنفوس التي لم تتحصن بجرعات الأيمان بما يكفي))

(4)

((فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا)) 14 الشمس

هناك جرائم استثنائية كبرى تحتاج لتهيئة الرأي العام.. لا بد للجناة ان يوفروا تغطية إعلامية تتناسب وحجم الجريمة المراد ارتكابها.. وبعد أن عزم المستكبرون من قوم صالح على عقر الناقة قاموا بالعزف على وتر الحاجة الى الماء.. وتأليب الجمهور (الفطيع) بإن الناقة والذي خصص لها يوم لتشرب الماء تؤثر على مصدر حياتهم الحيوي، لقد كان مبررا مقبولا في ظاهره فالماء في ثمود يعني كل شيء ومسألة حرمان قوم يشتغلون بنحت الصخورمن الماء ليوم كامل يخصص لشرب الناقة.. لقد استغل المجرمون هذه المسألة تحديدا لتكون سببا لتأليب الرأي العام الغوغائي..
ولو كانوا صادقين في دعواهم لرجعوا الى نبيهم لراجعوا الأمر ولخرجوا بحل للمشكلة فالناقة وإن خصص لها يوم لشرب الماء الا إنها كانت مصدرا للخير لهم حيث يتغذون على لبنها.. ولكنهم تآمروا على قتل الناقة منذ وقت طويل لإن الغاية النهائية هي قتل رسالة نبيهم لا قتل الناقة..

لقد انخدع بعض السذج من الهمج الرعاع بالمبررات التي ساقها قادة معسكر الضلال.. حتى تهيأ الرأي العام ليس في تقبل جريمة اغتيال ناقة الله بل والمطالبة في ذلك والمشاركة في ذلك الفعل المشين...

(فَعَقَرُوهَا)

وأخيرا وقعوا في المحظور وقتلوا ناقة الله.. من قتلها كان أحد الأشقياء ولكن العقاب الإلهي جاء جماعيا وكان عادلا..

لقد كان المجتمع الكافر الجاحد هو الآخر قاتلا فعليا ومباشرا.. ان الجريمة تتخذ صفة العموم حين يكون الضمير الجمعي راضيا بالفعل أو مرحبا بنتائجه حينها يكون المجتمع هو المرتكب لها وان نفذها شخص او أكثر بصورة مباشرة..

فالمجتمع الذي لا يمنع الجريمة ويرضى بارتكابها ويغرس ثقافتها او تبريرها في نفوس أبناءه والمجتمع الذي يحتضن المجرم او يسهل فعله أو يمهد له أو يخطط أو يرحب بنتيجة فعله هو فاعل حقيقي ومباشر للجريمة..والمجرم حين يجد الحاضنة الاجتماعية الفاسدة ويأمن العقاب الاجتماعي..

فإنه يرتكب الجريمة باسم المجتمع ونيابة عنه...

الجريمة إذن نتاج طبيعي لانحراف اجتماعي والمجرم ابنا شرعيا لمجتمع ترسخت فيه ثقافة الأنحراف..

من هنا نلتفت الى حقيقة تأكيد الشرع المقدس على شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتحذير من التهاون بها فضلا عن تركها..لقد أصبحت ثمود كلها مجرمة وخاطئة مستحقة لغضب ربها..

(5)

((فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ)) 157 الشعراء

الندم الذي يعقب ارتكاب الذنب تارة يكون ندم توبة واستغفار وإقرار بخذلان النفس واتباع الهوى واطاعة الشيطان وحينئذ يكون صادقا وحقيقيا قد يجعله الله بلطفه وكرمه مقدمة لتوبة نصوح وقد يكون ندم خوف من العقاب وسوء المصير وليس ندم على ارتكاب ذات الفعل وهو ندم مؤقت وغير حقيقي يزول بزوال السبب فلو أمن العقوبة لعاد وارتكب ما نهي عنه..

التوبة ليست قرارا شخصيا منفردا يتخذه المرء متى شاء.. انه عون من الله (عزوجل) وتوفيق منه إبتداءاوإنتهاءا وإن كان من ضرورياتها جهاد ومجاهدة وصدق نية وصبر وإصرار..

ويبقى الأمل ببلوغ التوبة قائما في كل الأحوال وإن تضاءل شيئا فشيئا ما دام في العمر بقية ومالم ينتهك العبد الخطوط الحمراء.. لكن مع بلوغ الظلمة النهائية للنفس ووصولها لتلك الدرجة من العتمة والتي لا تسمح معها بتسلل أي مقدار من نور الهداية تتلاشى كل معالم طريق العودة ولا يبقى للتوبة وجود في قاموس المعاندين..

في رحاب قصة نبي اللّه إبراهيم الخليل (عليه السلام)

بسم الله الرحمن الرحيم

((ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفا واتخذ الله إبراهيم خليلا)) النساء: ١٢٥

(1)

((وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين * فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين * فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين * فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذآ أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون * إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين)) الأنعام: ٧٥ ـ ٧٩

هنا لابد أن نقف على دلالة تلك الطريقة الإبراهيمية في الحوار والإقناع...

- إن نبي الله (عليه السلام) تنزل لمخاطبة الآخر وفق منهجه وما يؤمن به ثم تظاهر بأنه يتماشى مع منطقه بعد ذلك يلزمه الحجة العقلية..

وهو تصرف ذكي وحكيم للغاية وقد تعامل مع خصومه كل بالطريقة التي تناسب تفكيره فعبدة الكواكب تقوم عقيدتهم المبتدعة الضالة على بقايا علوم مندثرة في التنجيم وتأثير الكواكب فلم يسخر منهم (كما لاحظنا عند تعامله مع عبدة الأصنام) وكان لابد من تفنيد فكرة تقديسيهم لهذه الكواكب والتأكيد على أفولها وغيابها كدليل قطعي على

عدم صلاحيتها لأن تكون ربا جدير بالعبادة فمن يغيب هو عاجز عن تدبير شأنه فضلا عن الاهتمام بشأن غيره...

- لقد سمع نبي الله حجة الآخر بكل ما تحمل من ضلالة وحاججهم بالمنطق الذي يتماشى مع الفطرة ولم يمنعه انحرافه من الاستماع الى حججهم وأدلتهم وهذا ينطوي على درس كبير في الحوار مع الآخر المختلف مهما كانت حدة معتقداته بغية إقامة الحجة عليه..
- لم يتركهم نبي الله دون حلول بعد ان قام بتسفيه آراءهم دون أن يبين لهم طريق الهداية طريق العودة الى الله تعالى الى من خلق هذا الكون الرحب ما علموا منه وما لم يعلمون بالسماء وما حوت والأرض وما أقلت..

(2)

((ألم تر إلى الذي حآج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين*أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مئة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم قال بل لبثت مئة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير))البقرة: ٢٥٨-259

لقد حاجّه إبراهيم (عليه السلام) بمسألة الإحياء والإماتة كمسألة حسية تتناسب وسطحية تفكير النمرود.. ولكن الأخير يفهم الأمر بغباء أيضا حيث يأمر بإحضار سجينين محكوم عليهم بالإعدام يأمر

بتنفيذ الحكم به فورا فيما يفرج عن الثاني.. قائلا بزهو المغرور أنا أيضا أحيي وأميت. أمتّ السجين الأول وأحييت الثاني..

لم يجادله إبراهيم في ما قام به من عمل ساذج ينم عن جهل في حقيقة الإحياء والإماتة لم يقل له ان ما قام به لا يعدو كونه تصرف خارجي طارئ على الأصل لا يدخل في حقيقته وجوهره.. لأن الجدل مع المبتلى بآفتي الحمق والغرور هو غير منتج وضياع للوقت..

لذا فقد ألهم الله تعالى نبيه حجة دامغة أخرست النمرود ومعه كل الطغاة الجبابرة الحمقى على مر العصور.. قال إن الله يأتي بالشمس من المشرق فإت بها من المغرب.. يا لها من حجة وبرهان دامغ.. ضربة قاضية مميتة.. أسقطت الطاغية.. فلم ينبس ببنت شفة ,, وسط ذهول الجمهور الذي ظل يتفرج على خيبة نمرودهم الذي لاذ بصمته متلفتا الى أعوانه ومنافقيه الذين لم يسعفوه بشيء.. فما عساه أن يقول.. هل يدعي بأنه هو من أتى بالشمس من المشرق وليس الله.. عندها سيكون كاذبا ومثير للسخرية ذلك ان الشمس كانت تشرق من مكانها التي قدر الله ان تشرق منها قبل ان يأتي الى هذه الدنيا.. وان تغيير جهة إشراقها بيد خالقها..

فبهت الذي كفر خائبا ذليلا..

(3)

((يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا*يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا)) 44-45 مريم

نحن أمام درس أخلاقي وعقائدي كبير من خلال حوار نبي الله إبراهيم (عليه السلام) مع أبيه آزر:

لقد كان شاقا على نفس إبراهيم (عليه السلام) أن يُعبد غير الله وذكر الشيطان وعصيانه لله (عز وجل) وهي مسألة جوهرية ومصيرية لدى نبي الله أكبر بكثير من تداعيات مواجهته مع أبيه آزر، ولنتأمل الأسلوب الذي هو غاية في اللطف والأدب بدأ حواره (يا أبت) ثم قال بقلب المشفق (إني أخاف) نسب الخوف لنفسه كي يرسل رسالة ود وشفقة لأبيه (أن يمسك) ولم يقل أن يصيبك أو ينزل بك وهو أسلوب أخف وطأة (عذاب من الرحمن) لم يقل من المنتقم الجبار او القهار بل من الرحمن ليفتح باب لم يغلق بعد باب رحمة الله الذي يصده الشيطان عنه.

(4)

((قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ * وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ)) 69- 70 الأنبياء

حين نمر ببعض أحداث التاريخ الكبرى نستغرب كيف يوثقها بدقة متناهية لتصبح خالدة ولكن حين نقرأ ((وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ)) يزول استغرابنا ليتحول الى إيمان عميق بقدرة الله وتدبيره ما حدث لنبي الله إبراهيم (عليه السلام) والنمرود ومحاولة احراق نبي الله من تلك الأحداث الخالدة لتجسد درس عظيم للبشرية عنوانه (الثقة المطلقة بالله تعالى).

لقد كان بإمكان النمرود الطاغية أن يلقي القبض على نبي الله ويلقيه في السجن أو يقتله أو يغتاله ربما حاول ذلك وفشل لأن إبراهيم (عليه السلام) كان محفوظا بعين الله ورعايته ولكن الطريقة التي أراد النمرود قتل إبراهيم غريبة جدا.

كعادة الطغاة والجبابرة فقد أراد أن يبتكر طريقة لإعدامه تتحدث بها الأجيال ويعبر من خلالها على عظيم غضبه على هذا النبي الذي أحرجه أمام شعبه وجعله يشعر بالخزي أمامهم في مناظرته معه..

ويرشده الشيطان الى طريقة غاية في القسوة والخبث لم يعرف لها البشر نظيرا..
قرر إحراق ابراهيم حيا.. وكأنه أراد القول: أليس هو من يهددنا بنار الآخرة وسعيرها سيتذوقها في الدنيا.. هكذا صورت لهم أحلامه المريضة وسذاجته.. ويعلن النفير العام وتسّخر الدولة كل امكاناتها من أجل ذلك.. فيأمر رأس النظام بأن تنظم حملة وطنية لجمع الحطب بحيث يملأ واديا عظيما..
لقد أراده الطاغية انتقاما مميزا يليق بجبروته.. لم يفقه النمرود وكل الطغاة أن النار والريح والمطر والبشر جنود من جند الله خاضعة لمشيئته فيأمر الله النار أن تكون بردا وسلاما على إبراهيم وقد كانت مثلما يسجرها خزانها يوم القيامة للنمرود واعوانه وكل الطغاة المستكبرين أمثاله.
لتتعلم البشرية دروسا عظيمة لعل أعمقها درس عنوانه (الثقة المطلقة بالله تعالى)

(5)

((رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ)) 37 ابراهيم

ولحكمة يريدها الله تعالى.. يأمر الله نبيه بأن يسكن إسماعيل وأمه في مكان وعر في بيئة موحشة حيث لا ماء ولا شجر ولا مؤنس..
هنا لابد أن نقف طويلا عند هذه النقطة فقد يبدو في الظاهر أن تصرف نبي الله لا يتماشى مع ما يفكر به معظم الناس فكيف يمكن أن يترك رجل عائلته في هكذا ظروف لم تؤمن فيها ظروف مناسبة للعيش.. يتركهما وحدهما؟

إنه لأمر يثير الاستغراب حسب المنطق البشري المحدود، لكن مع أولياء الله الأمر مختلف تماما ففيما نحن ننظر الى ظاهر الأمر وأسبابه المباشرة والظروف المادية المحيطة ينظر الأولياء الى الآمر الحكيم وعظيم قدرته وواسع رحمته.
لذا فإن إبراهيم (عليه السلام) لم يخضع الأمر للاجتهاد أو العاطفة ولم ينظر الى الأسباب بل الى مسببها..
ان أسئلة العقل كيف؟ ولماذا؟ وهواجس النفس وترددها.. لكن ! ماذا لو؟
هذه الأسئلة والمخاوف الوهمية يخلو منها قاموس المتوكلين ونحن نسألها بجهل وقلة يقين.. ولنقف من جديد مع دعاء نبي الله لنلاحظ:

- أنه (عليه السلام) قد قام بالدعاء بعد تنفيذه الأمر.. ولايخفى الفرق بين الدعاء قبل التنفيذ وطلب الرخص والأعذار وبين التوكل عليه سبحانه وتنفيذ الأمر ومن ثم الدعاء باللطف..
- إن الدعاء كان عاما شمل كل الأجيال اللاحقة.
- ان الدعاء بالرزق المعنوي بجعل أفئدة الناس تهوي الى ذريته قد سبق الدعاء بالرزق المادي المتمثل برزق الثمرات..
- ختم الدعاء ب (لعلهم يشكرون) لأهمية الشكر في بقاء النعم ودوامها..

(6)

((فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين)) 102 الصافات

((قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك))

رؤيا إبراهيم (عليه السلام) أنه يذبح ابنه إسماعيل.. لعلها من أشد الابتلاءات نفسيا وعاطفيا وإن كانت ابتلاءا عقائديا أولا.. لعل سؤالا

يقفز الى الذهن حول الطريقة التي جاء بها الأمر الإلهي وهي رؤيا المنام وقد أجاب العلماء بإن رؤيا الأنبياء في المنام هي احدى طرق الوحي لذا فإن نبي الله قام بتنفيذ أمر إلهي وليس رؤيا منام..

تتضح لنا صعوبة الموقف حين نتعرف على ملابسات الحدث وشخصياته لقد صورت لنا الروايات مدى العلاقة الوجدانية العميقة التي كانت تربط إبراهيم الأب بإنه إسماعيل فلقد كان يحبه حبا جما ويعتمد عليه في شؤونه الدنيوية فضلا عن ارتباطهما القلبي عقائديا فقد كان إسماعيل (عليه السلام) وليا من أولياء الله الصالحين ونبيا ورسولا فيما بعد.

((فلما بلغ معه السعي))

الآية الكريمة توضح سر العظمة في الموقف لم يات المر حين كان إسماعيل طفلا أو صبيا بل جاء في اكتمال رجولة إسماعيل وبلوغه السعي واستئناس أبيه به واعتماده عليه..

((فانظر ماذا ترى))

قد يبرز اشكال آخر حول استشارة نبي الله إبراهيم (عليه السلام) لاسماعيل إذا كان نبي الله جازما على تنفيذ أمر الذبح ما هو وجه الاستشارة !

لم تكن استشارة تخيير بالرفض والقبول ويتضح ذلك من جواب إسماعيل الذي لا يدع مجالا لاحتمالية التردد في التنفيذ، لقد أراد نبي الله إبراهيم أن يرى كيفية لتقبل الأمر الإلهي أو بالأحرى ليظهر استعداده النفسي ورسوخ عقيدته وثباته وولاءه المطلق لله (تعالى) فوجد ابنه على قدر الابتلاء العظيم حين أجاب بجواب حاسم قاطع مسلم لأمر ربه.

((ستجدني إن شاء الله من الصابرين))

في درس عظيم لم يقل ستجدني صابرا بل علق الأمر على المشيئة الإلهية.

(7)

((فلما أسلما وتله للجبين*وناديناه أن يا إبراهيم*قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين*إن هذا لهو البلاء المبين*وفديناه بذبح عظيم*وتركنا عليه في الآخرين*سلام على إبراهيم*كذلك نجزي المحسنين *إنه من عبادنا المؤمنين))الصافات: ١٠٣ - ١١١

في تدبر الحكمة من إبتلاء إبراهيم (عليه السلام)

أجاب العلماء جوابا محتملا لطيفا للغاية مفاده أن قلب إبراهيم (الإنسان) قد تعلق بحب ابنه إسماعيل ورغم إن هذا الحب هو حب فطري مشروع كعاطفة بشرية الا إن القوانين التي تحكم حياة الأولياء استثنائية في كل شؤونهم ومنها عواطفهم الإنسانية فقلب الولي مملكة خالصة لله.. فيها وجود محدود للغاية لتلك العواطف البشرية المألوفة لدى غيرهم لهذا كان ابتلاء إبراهيم الخليل بإسماعيل ويعقوب النبي بيوسف (عليهم صلوات الله وسلامه).

ان الغاية من الابتلاء الذي يتعرض له أولياء الله علاوة على كونه دروسا عقائدية للأمة فإنه يبرز سرالاجتباء لهؤلاء الأولياء العظام الذي لم يكن امتيازا ربانيا مجانيا دون ميزة روحية وصلوا من خلالها الى حقيقة العبودية المطلقة لله تعالى..

((وناديناه أن يا إبراهيم*قد صدقت الرؤيا))

في اللحظة التي ينتصر فيها إبراهيم (عليه السلام) ويقوم بالفعل ((وتله للجبين)) وينتصر فيها إسماعيل لصدق التسليم يأذن الرب الرحيم بإنهاء المشهد المقدس انهى الامتحان بنتيجة مبهرة لخليل الرحمن وابنه (عليهما السلام).

لقد كان درسا إلهيا عظيما تجسدت فيه قيم عقائدية وعرفانية كبيرة.. عنوانه التسليم المطلق لأمرالله تعالى والتنفيذ بأقصى درجات الإخلاص والرضا..

(8)

((وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم)) البقرة: ٢٦٠

الأعتقاد يترسخ باليقين واليقين لا يأتي الا من خلال الاطمئنان القلبي والقناعة العقلية هذا هو المنطق البشري وقد تدرجت البشرية في فهمها للدين من خلال الرسالات الخالدة لأنبياء الله فكل رسالة سماوية كانت تضيف لبنة في البناء العقائدي حتى اكتمل هذا البناء الشامخ في الرسالة الخاتمة.

في زمن نبي الله إبراهيم خطت البشرية خطوات في سلّم فهمها للدين ولكنها كانت بحاجة الى دروس عملية حسية تعمق الإيمان ومؤكد إن ابراهيم الخليل هو سيد العارفين والموقنين ولكن الموقف اقتضى ان يكون (عليه السلام) هو المعلم الذي يجري عليه هذا الدرس ولنلاحظ:

. (فخذ) (فصرهن إليك) (ادعهن يأتينك) كلها بصيغة فعل الأمر لنبي الله ابراهيم ولو شاء الله وهو القادر أن يحيي الموتى بكن فيكون ولكنه (جل شأنه) أراد أن تكون الاماتة والاحياء على يد عبده لتكون أبلغ في القدرة وأشد رسوخا في الفهم..

(9)

((وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين)) ١٢٤البقرة

لو تأملنا الإبتلاءات التي تشرف بها نبي الله إبراهيم (عليه السلام) كانت متعددة ومتنوعة واستثنائية وعلى أكثر من صعيد الروحي

والنفسي والشخصي والعقائدي وقد اجتازها جميعا بامتياز وكل ابتلاء كان يجتازه كان درجات قرب وتألق في سماء الاجتباء..
وقد توجّها بتلك الكلمات اللاتي أتمهن ليجعله الله (عز وجل) للناس إماما.. ليس للمؤمنين فحسب بل للناس ان كل ما مّر به نبي الله من ابتلاءات كانت درجات قرب.. كان إبراهيم يتألق في سماء الاجتباء.. فمن نبي كريم الى رسول الى رسول من أولي العزم الى خليل الرحمن الى أعظم درجة اصطفاء وهي الإمامة وللناس جميعا ليس للمؤمنين فحسب..
وكي يظهر الله (عز وجل) قدر تلك الإمامة فقد سالها نبي الله لذريته فقد حرّمها على الظالمين فالامامة درجة رفيعة لا ينال شرفها الا بشرطها وشروطها لذا جاء الرد حاسما وقاطعا (لا ينال عهدي الظالمين) أيا كان هذا الظلم ظاهرا او باطنا صغيرا او كبيرا..

(10)

((فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط*إن إبراهيم لحليم أواه منيب)) 74- 75 هود

نقف عند جدال ابراهيم (عليه السلام) لرسل الله الملائكة التي جاءته بالبشرى ولادة إسحاق ونبأ إهلاك قوم لوط:
ما السر في جدال خليل الله وماهي حقيقته ودوافعه؟
قبل ذلك لابد من القول ليس كل جدل مكروه فالجدل بموضوعه والهدف منه ونية الذي يجادل وطريقته في الجدل..
لو تأملنا في جدل ابراهيم (عليه السلام) للملائكة في إهلاك قوم لوط لوجدنا أنه جدال حسن نابع من نفس كريمة تحرص على الخير حتى استوضح من الأمر ووقف على حقيقته ومدى تمادي القوم الكافرين من قوم لوط وتطاولهم على نبيهم واستخفافهم بالنذر وفسقهم وفجورهم.

لقد أظهر هذا الجدال مدى التميز والإيجابية العالية وشفافية الروح التي كان يتمتع بها هذا الرسول الكريم.. والدرس الذي تعلمناه من جدال إبراهيم (عليه السلام) ان الهدف من ارسال الرسل هو للرحمة ودخول الناس في دين السلام وإن الاهلاك هو المحطة الأخيرة التي يختارها أهل الكفر والضلال والبغي وما ظلمهم ربهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون..

في رحاب قصة نبي اللّه لوط (عليه السلام)

بسم الله الرحمن الرحيم

((ولوطا آتيناه حكما وعلما ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث إنهم كانوا قوم سوء فاسقين*وأدخلناه في رحمتنا إنه من الصالحين))الأنبياء: ٧٤ ـ ٧٥

(1)

لعل المسألة الجوهرية في قصة نبي الله لوط (عليه السلام) هي مسألة الانحراف الأخلاقي الجمعي..

ان أخطر ما في الانحراف إن تعدى مرحلة الفردية في ممارسته الى مرحلة الممارسة الجماعية بحيث ان المنحرف بات يمارس شذوذه دون خشية من الرقيب الاجتماعي يكون قد دخل الانحراف مرحلة خطيرة لا يجدي معها أي علاج..

السؤال: كيف يصل الانحراف الى المستوى الذي يكون فيه مباحا اجتماعيا بل ومرغوبا فيه؟

كيف تدنس فطرة مجتمع بكامله بحيث تمارس العادة الشاذة علانية وبلا حياء؟ سؤال مدعون للتفكر في إجابته..

فالجريمة بشكل عام والأخلاقية منها تحديدا هي نتاج حالة مرضية أصابت المجتمع.. وخلل في بناءه القيمي.. وليست مجرد سلوك فردي خاطئ..

كأي مرض يبدأ كحالة غير صحية محدودة ثم يتفشى لعدم وجود المضاد الحيوي للفيروس المسبب للمرض ليصبح وباءا..

والأمر ذاته ينطبق على الانحراف الذي يبدأ بحالة سلبية متناهية في الصغر قد لا يلتفت اليها.. ممارسة شاذة تتسع رقعتها شيئا فشيئا وتتعدد صور ممارستها ويكثر عدد المنحرفين الذين يمارسونها ولا

تجد من يحاربها فتترعرع وسط مجتمع غير محصن..لتصبح ظاهرة اجتماعية.. ويمسي المجتمع فاسدا مما يجعل مهمة إصلاحه من الاستحالة معالجتها الاّ بالاستئصال.. وهو الأمر الذي حصل مع قوم نبي الله لوط.

(2)

((أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ)) 78 هود

أليس منكم رجل رشيد؟

نبي الله لوط (عليه السلام) في محنته مع قومه الفاسقين استنفذ كل السبل في هذا الموقف أراد أن يستفز فيهم بقايا إنسانية فيتسائل سؤال يستثير فيهم قيم أماتوها وعقول عطلوها وهو سؤال استنكاري أكثر منه استفهامي... الإنسان قد لا يهتدي فالهداية من الله ولكنه يبقى متمسكا ببقايا رشد.. لكن حين يفقد رشده فإنه يفقد صفته الآدمية..

(3)

((وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ)) 81 هود

ان التعاطف مع من أستحق غضب الله تعالى والالتفات اليه ولو بمقدار الالتفاتة الواحدة يخرج الإنسان من دائرة الولاء لله تعالى.. ليس هناك هامشا للمتردد..

كذلك فإن أي مقدار يحمله قلب الإنسان من التعاطف مع أعداء الله سيجعله يلتفت اليهم كما التفتت اليهم امرأة لوط المنافقة.. فالإنسان يجب ان يتخذ موقفا صارما وحادا في هذه المسألة الخطيرة مسألة الولاء لله وألتبرؤ من أعداءه..

انها فتنة ليست هينة هلك فيها من هلك..

حين تغادر شيئا وتتركه لله غادره بقلبك ومشاعرك ووجدانك لا تلتفت اليه اهجره تماما..
وما حدث لامرأة لوط النبي يتكرر هنا وهناك في زوايا أنفسنا المظلمة...

ويبقى أمر أخير غاية في الأهمية على هامش قصة نبي الله إبراهيم ونبي الله لوط (عليهما السلام)

قبل أن تأتي ملائكة الله تعالى نبي الله لوط (عليه السلام) ببشرى الخلاص من القرية الظالمة المفسدة.. (وكما رأينا) كانوا قد مروا بإبراهيم الخليل (عليه السلام) بشروه ببشارتين قد تبدوان غير مترابطتين ولكنها يصبان في هدف واحد..
بشروه بولادة إسحاق ولي صالح من أولياء الله تعالى من زوجته ساره العجوز العقيم قد تزامنت مع بشرى اهلاك القوم الفاسقين..
أما مغزى تزامن البشارتين بشارة الولادة وبشارة الإهلاك.. فهي رسالة تأملها أولو الألباب فحواها:
أن ولادة طاهرة لنبي وعبد صالح يمثل الفطرة التي تقوم عليها سنن الكون يمثل بذرة طيبة تنمو وتورق تعيد بناء الحياة وفق منهج الله خير من اقوام بآلاف مؤلفة انتهكوا القانون الإلهي وبدلو الفطرة وأسرفوا في الفساد وأرادوا تعطيل سنن الوجود.. فالعبرة ليست بكثرة الخلق بقدر ما هي بمعرفة الحق والسير بمنهج الله تعالى.. ولعبد صالح أكرم على الله من أمة جاحدة.. بل ربما أمة حفظت بذلك العبد ولنلحظ ان القرى الظالمة لم تهلك حتى خرج لوط وأهله منها..

في رحاب قصة النبي موسى الكليم (عليه سلام الله)

بسم الله الرحمن الرحيم

((يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وعَدُوٌ لَهُ)) 39 طه

(1)

ان ترعرع الأولياء في بيئة ملتصقة بالطغاة برغم امتلاكهم المعلومات الدقيقة بشأن أولياء الله مصدر الخطر عليهم وعجزهم عن النيل منهم معجزة عظيمة تثبت المبدأ الإلهي في المشيئة وإن الله يفعل مايريد ولا يفعل ما يريد غيره..

رأينا ذلك مع النمرود في قصة سيدنا إبراهيم ونراه هنا في قصة سيدنا موسى (عليهما السلام) فرغم تحسب فرعون وترصده واتخاذه كل الاحتياطات للقضاء على عدوه المتوقع الذي سيقضي عليه وعلى ملكه بحسب النبوءة (التي صدقت فعلا) برغم خوفه وهلعه الذي ذهب ضحيته الأبرياء من المواليد في كل عام..يولد موسى ويذهب الى قصر فرعون في التابوت الى قصر الطاغية وفي ذلك أكثر من دلالة عميقة المغزى..

فذهاب موسى الى فرعون في عقر داره يعني أمرا هاما يتعلق بطبيعة المعركة بين الباطل الذي يمثله الطغاة والحق الذي يمثله المرسلون.. فنجد إن المبادرة دائما تكون للحق فهو الذي يذهب الى الباطل ليدك معاقله ويهدم حصونه..

مما يعكس المعادلة المترسخة خطأ في الأذهان من استضعاف الحق.. وأن الباطل هو الذي يطارد الحق ويلاحقه.. فالرسل والأنبياء والصالحين يمثلون الأصل والقاعدة فيما يمثل أعداءهم من طغاة وجبابرة الاستثناء الطارئ..

ولعل السؤال الذي يحمل في ثناياه الإجابة:

ما الذي حال بين فرعون وبين قتل موسى مع تيقنه من إنه الخطر الموعود؟
بعيدا عن الأسباب الظاهرية التي بررت ذلك فإن الذي حال بين فرعون وموسى (عليه السلام)
هو أمر الله (تعالى) الذي لا مرد له وأن الله بالغ أمره وإنه يحول بين المرء ومايشاء حتى تنفذ مشيئة الله (عز وجل).

(2)

((وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين*فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين)) 7 القصص
او
وقفة إنسانية مؤثرة جدا وعاطفية.. أم موسى بكل حب وخوف.. تحتضن وليدها وقد سمعت بالأمر الملكي الفرعوني بقتل مواليد العام الذي ولد به نبي الله..تتمنى لو تخفيه تحت جوانحها تمر عليها الليالي والأيام ثقيلة مرعبة قلق وخوف يحبس النفاس.. حتى إذا استنفذت كل قدرة لديها على التحمل يأتيها الأمر الألهي بوحي يوحيه الجليل بإلهامها: ((فإذا خفت عليه فألقيه في اليم))
أن تلقيه باليم !!
هي دعوة للتأمل بهذه الصورة التي التقطتها كاميرا الزمن بدهشة وخصوصا تلك العبارة المباركة.. كيف يمكن تصور ذلك؟ كيف يمكن الهروب من مورد الخوف الظني الى مورد الخوف الحتمي؟.. كيف لأم أن تلقي صغيرها الرضيع في البحر خوفا عليه؟ طبعا لأمثالنا الأمر مفزع لا تتحمله عقولنا القاصرة ولكن عند الأولياء ووفق قانونهم الأمر في غاية المنطقية فتسليم الأمر للمولى تسليم المؤتمن لصاحب الأمانة.. لا مشكلة لديهم على الإطلاق طالما هم

ممتثلون لأمر بارئهم الحكيم القادر الحافظ من بيده ملكوت كل شيء..لقد أثبتت أم سيدنا موسى أنها على قدر المسؤولية الإلهية وأنها أهلا للتشريف الالهي حين قدّر أن تكون وعاءا طاهرا لكليم الله تعالى..

ولا يعني هذا ولا يقلل من منزلتها أن تشعر بالحزن البشري المعتاد بمثل هذه المواقف.. فنحن نتحدث عن عاطفة وأحاسيس أم بكل ماتحمل كلمة أم من معان إنسانية..وتمتثل الأم لوحي الله بكل توكل وثقة وحسن ظن ببارئها وتلقي وليدها في اليم.

(3)

((وأصبح فؤاد أم موسى فارغا إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين)) القصص 10

ولنقف وقفة أخرى أطول من سابقتها عند قوله تعالى ((وأصبح فؤاد أم موسى فارغا)) فوصف حال قلب الأم بعد إلقاء وليدها في اليم إنه (قد أصبح فارغا)..

تعبير مدهش وقف عليه طويلا أهل العلم وسحر أولى الألباب ولا نجد لهذا الوصف نظير مع كل الإبداعات الأدبية للبشر ورقي مستوى التعبير..

كيف يصبح القلب فارغا؟ ومن أي شيء يفرغ؟ لقد ذهب المفسرون مذاهب شتى ونرى أن النص يحتاج للتأمل الروحي أكثر منه للتأمل العقلي..

ان كلمة (فارغا) تكشف عن المكانة التي كان موسى يشغلها في قلب الأم حيث إن أحاسيس كثيرة اختلطت ببعضها ملأت كل هذا القلب من حب وود وحنان وخوف وقلق وترقب وفجأة وبلا مقدمات كثيرة تقذف بحبيبها وصغيرها في اليم **!!** لتنتزع كل تلك المشاعر دفعة واحدة.. لتسبح روحها في فراغ لا حدود له..

أما العبارة الشريفة التي لا تقل سحرا وجمالا عن سابقتها
(إن كادت لتبدي به)
فقد كانت عاطفة الام تخذلها ولا تستطيع أن تكتم مشاعر فرحها برؤية صغيرها من جديد فتكشف سر وليدها فيربط الله تعالى على قلبها وتتعامل مع موسى الرضيع كاي مرضعة أخرى وهو لطف الله وجميل صنعه بعباده حيث يقلب افئدتهم ومشاعرهم بما هو أصلح لهم.
ويتحقق وعد الله الذي لم تشك به أم موسى فتطمئن ويهدأ بالها ولتعلم ونعلم نحن أيضا أن وعد الله حق..

(4)

((ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين *قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم*قال رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيرا للمجرمين))القصص: 15 - ١٧

حادثة قتل موسى (عليه السلام) للشخص الفرعوني تثير أكثر من سوال..
أما كان بالإمكان تفاديها؟..
كيف تمت جريمة القتل؟ كيف لضربة واحدة أن تقتل؟..
هل انتصر نبي الله للإسرائيلي المعتدى عليه تعصبا لكونه من شيعته؟..
لماذا لم يتعامل موسى مع المسالة قضائيا؟
وإذا كان القتل خطأ فلماذا نسب نبي الله الظلم لنفسه واستغفر ربه وعاهد الله الا يكون ظهيرا للظالمين؟ ومن يقصد بالظالمين؟..

هذه بعض الأسئلة التي تتبادر الى الذهن قبل محاولة الاجابة عليها..
لا بد أن نتعرف على الأجواء التي كانت سائدة، قبل الحادثة لابد من ملاحظة هامة تتعلق بشخص النبي وميزاته النفسية.
موسى عليه السلام في قراءة لشخصيته نجده في من الشخصيات الايجابية جدا والمتفاعلة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وسلنلحظ ذلك جليا في كثير من المواقف التي مر بها فهو يتفاعل مع الأحداث باحساس كبير وحماس وانتصار لكل موقف فيه رضا لخالقه.
موسى (عليه السلام) ومن خلال وجوده في القصر الفرعوني أخذ صورة كاملة عن المجتمع وصراعه الطبقي وثقافة الاستعبادوالاحتقار التي يحملها الفراعنة والأقباط للإسرائيليين يضطهدوهم بقسوة يقتلون أبناءهم ويستحيون نساءهم للخدمة في بيوتهم ويحرمونهم من ابسط حقوق المواطنة..
إزاء هذه الممارسات التعسفية والظالمة كان قلب موسى الإنسان يمتلأ ألما على الإسرائيليين ليس لأنهم قومه وأبناء جلدته بل لأنهم مستضعفون مقهورون.. في خضم هذا الهم الكبير الذي كان يحمله نبي الله في أحد الأزقة تتجسد أمامه صورة من صورالظلم الاجتماعي..
أحد العاملين في القصر يسخّر اسرائيلي لحمل الحطب.. من غير الممكن أن يتجاهل موسى (عليه السلام)الأمر يستضعف القوي الضعيف فهناك ظالم متسلط ومظلوم يستغيث..
بدءا يتدخل نبي الله بالتي هي أحسن ولكن الفرعوني يتمادى في تجبره الأمر الذي جعل موسى (عليه السلام) يضربه ضربة تقضي عليه.. ربما جاءت الضربة في موضع حساس من جسده أو أن القوة الهائلة لقبضة موسى هي التي قضت عليه..

على كل حال الحادث تم خطأ وبلا قصد جنائي وقد شاءت الإرادة الإلهية أن يحدث ذلك لما يترتب عليه كل الأحداث القادمة..هكذا اقتضت حكمة الله تعالى..

و الآن مع الجزء المدهش في قضية القتل..

موسى (عليه السلام) بعد حادثة القتل نسب الظلم لنفسه واستغفر الله (عز وجل) وهو من أدب الدعاء لدى الأولياء مع مولاهم الحق..

لكن قبل ذلك بماذا حدث نبي الله نفسه.. لقد نسب العمل للشيطان واصفا إياه بالعدو المضل المبين فما دلالة ذلك؟

: قيل انه كان يقصد بعمل الشيطان هو أصل النزاع الذي حصل بين القبطي والإسرائيلي لا حادثة القتل الخطأ ذاتها..

وقيل في الظلم الذي نسبه موسى (عليه السلام) لنفسه أنه لم يحتط للأمر كما يجب في دخوله المدينة.. ولأنه ترك الأولى وأوقع نفسه في مأزق سيدخله في إشكالات قانونية مع فرعون الذي سيجد ذريعة للنيل منه وبالتالي سيؤثر على سير رسالته..

وقيل في استغفاره إنه استغفار بمعنى الستر والحفظ من الأعداء وليس استغفارا من ذنب.

الذي نريد أن نتدبره من هذا الموقف هو:

الإشكال الذي نقع فيه كثيرا وهو إننا في بعض الأحيان ننسب كثير من أفعالنا الى الشيطان العدو المضل المبين وننسى أو نتناسى ظلمنا لأنفسنا ونصيبها من الأثم.. ربما المقدمات يساهم بها الشيطان ولكن ماذا بشأن التفصيلات..؟

نصرة الظالمين من أهم الأمور التي شدد عليها الشارع الحكيم معتبرها عمل محرم.. إن بالتأكيد لم يتحدث عن نفسه بقدر ما كان الحديث موجه لنا.... فالنعمة التي أنعم بها الباري (عزوجل) علينا من قوة بدنية أو مادية أو موهبة فكرية أو سلطة دنيوية يجب الا تكون بخدمة الظالمين وبأي شكل كانت إبتداء من النظر اليهم بوجوه

مكفهرة وقلوب رافضة لظلمهم وانتهاء بعدم الوقوف معهم وعدم ابداء أي قدر من المساعدة..

(5)

((فأصبح في المدينة خائفا يترقب فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه قال له موسى إنك لغوي مبين*فلما أن أراد أن يبطش بالذي هو عدو لهما قال يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالأمس إن تريد إلا أن تكون جبارا في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين)) 18 – 19 القصص

لعل سؤال يطرح على ضوء الآيتين الكريمتين:
كيف نفسر نصر موسى (عليه السلام) هذا الإسرائيلي الذي وصفه بالغوي المبين.. فإذا بان له غيّه كيف ينصره ثانية؟
كيف لخائف يترقب متهم أن يدخل في نزاع آخر وبطريقة مشابهة؟..
بدءا لا يمكننا أن نفهم ما يقوم به الانسان الا بعد معرفة دوافعه والتي تحددها مزاياه النفسية..
فموسى (الانسان) يمتاز بنقاء سريرة ونجدة وحمية وايثار ويتمتع بحماسة وروح متوثبة نشطة لا تعبأ بحسابات بشرية مترددة..
أي شخص يتهم بجريمة يفكر غريزيا بإنقاذ نفسه وربما الهرب لكن موسى(عليه السلام) يواجه الأمر بكل هدوء ثقة بالنفس فهو لم يرتكب ذنبا بنصرته للمظلوم وإن القتل كان عرضيا غير مقصود وحين دخل المدينة للمرة الثانية وجد ذات الشخص الذي نصره بالأمس يستصرخه اليوم وكلمة (يستصرخه) تدل على حراجة موقفه واستضعافه الشديد ولا يعني لوم موسى له على افتعال المشاكل انه على باطل دائما فلكل موقف ظروفه الخاصة بدليل قيام موسى بنصرته ثانية وهو الذي دعا الله (عز وجل) من قبل الا يجعله ظهيرا للمجرمين..

ان تصرف النبي دليل الصواب..و لا يفترض أن نناقش شرعيته أو مشروعيته طالما اعتقدنا بعصمة النبي غاية ما نناقش أننا نحاول أو نفهم ملابسات الحادثة فنقول:
إن رعونة التصرف الذي قام به (الذي استنصره بالأمس) لا يعني الحكم المسبق عليه.. فالمعيار موضوعي وليس شخصي..
هو درس كبير في عقلانية اتخاذ المواقف وان لا نبني حكما مسبقا على شخص مشاغب ربما تركنا نصرته ويكون الحق معه..
عبارة ((عدو لهما)) تدل على أن القضية عقائدية تتعلق بنبوة موسى وانقسام المجتمع المصري الى إسرائيلي منتظر للنبي المخلص وعدو لهذا النبي الذي يعتبره زوال لملكه وسطوته...
بقي أمر آخر جاء على لسان القبطي الذي همّ موسى (عليه السلام) بضربه لتماديه وعدم سماعه للنصح..
((إن تريد إلا أن تكون جبارا في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين))
يبدو إن هذا القبطي ذو شأن وهو مرتبط بالقصر ويعلم بدعوة موسى للإصلاح ويعلم بالفطرة أن دعوة الإصلاح هذه لا تكون بالقتل وسفك الدماء مما يدل أن القوم يعلمون أن الجبار لا يمكن ان يكون مصلحا..
فلا يطاع الله من حيث يعصى ربما قالها القبطي بفطرته وبقناعته أن موسى من أهل الخير والصلاح.

(6)

((وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد)) ٢٦غافر

بعد أن أحس فرعون أن الخطر بدأ يقترب منه ينتهج الديمقراطية مؤقتا فيقول لملأه ((ذروني أقتل موسى)) وكأنه يستأذنهم !!..

وإذا كان هذا غريبا فأغرب منه الحجة التي ساقها تبريرا لقتل موسى (عليه السلام)

((أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد)) يالها من سخرية مرّة. أصبح فرعون يخشى من موسى ان يفسد في الأرض.. هكذا تنقلب الموازين هكذا يُستحمر الشعب.. وتزيف الحقيقة..

لكن السؤال..

ما الذي جعل فرعون يستأذن ملأه وحتى شعبه إذا كان هناك رأي عام معبأ ومهيأ مسبقا ضد موسى؟

إنه الخوف والرعب الداخلي الشعور بالهزيمة يريد من الملأ مشاركته الهزيمة.. إنها الروح الانهزامية لدى الطغاة يلجئون لشعوبهم أوقات محنتهم.. فإذا تبدد خوفهم عادوا لاستبدادهم..

(7)

((وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين)) ٢٠ - القصص

هنا نقف عند نقطة هامة وهي ضرورة وجود حس استخباري تجسسي على الأعداء لإفشال مخططاتهم وهو أمر مشروع ومطلوب.. فلابد أن تكون للأيمان عين على معسكر الكفر..

إن الخدمة التي قام بها مؤمن آل فرعون كان لها دور كبير في إنقاذ الرسالة والرسول ولنا تصور حراجة موقف نبي الله وهو يؤخذ على حين غرة من عدو الله وعدوه..

(8)

((ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير)) 23 القصص

((لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير))

في لمحة أخلاقية عالية الدلالة وفيما موسى (عليه السلام) يرد ماء مدين يلفت نظره وجود فتاتين بدت عليهما إمارات الحياء والنبل وقد ابتعدتا عن مزاحمة الرجال تريدان السقاء..
وبطبعه الإنساني وشدة غيرته ونخوته بشخصيته الايجابية المبادرة يسألهما موسى (عليه السلام) عن شأنهما فتجيبان بجواب ذكي للغاية عبارة عن درس لكل فتاة تضطرها ظروف الحياة القاسية أن تخرج لقضاء شأن ما خارج المنزل ((لا نسقي حتى يصدر الرعاء)) أي حتى ينفضّ الناس خشية مزاحمة الرجال ثم يبرران خروجهما وكأنه أمر اضطراري غير معتاد ((وأبونا شيخ كبير)) وفي ذلك درس كبير لكل امرأة حرّة عفيفة تصون كرامتها الاّ تخرج الا لأمر ذي شأن وأن لا تزاحم الرجال وأن تبرر خروجها لمن يعرفها أو يسألها كي لا يساء الظن بها.
((ثم تولى إلى الظل فقال رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير))
24 القصص
بعد أن سقى موسى (عليه السلام) للفتاتين.. يتوارى الى الظل وقال
((رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير))
هنا نتوقف:
عند ((ثم تولى إلى الظل)):
حين يوفقك الله لفعل الخير لا تنظر الى من فعلت له الخير لترى فيه أثر ما فعلت ولا ترى نفسك في فعلك وتولى الى ظل نفسك..
و عند ((رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير)) ما هو الخير الذي قصده نبي الله؟..
ربما الذي قصده موسى هو توفيقه لفعل الخير ومساعدة البنتين على السقاء.. إن مجرد التوفيق لطاعة الله هو الخير بحد ذاته وما يتبعه تفاصيل يجب الا تشغل بال فاعله.

((فجاءته إحداهما تمشي على استحياء قالت إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا)) 25 القصص

درس أخلاقي آخر عملي لقد ذكر الله تعالى مشية الفتاة بأروع وأجمل تعبير (على استحياء) تعبير اختزل كل كلمات الثناء فالمشية تعبر عن الشخصية في معظم الأحيان فمثلما هناك مشية مستهترة ومتهتكة ومستكبرة ومتبخترة هناك مشية على استحياء بأدب وحشمة ووقار. لقد اهتم الإسلام بالمرأة اهتماما كبيرا فهمه أعداء الإسلام والجاهلون والسفهاء على أنه تقييد لحريتها وحجر عليها فيما أراد الإسلام الاهتمام بها وصون كرامتها والحفاظ عليها فاهتم بمظهرها المحتشم وما يجب أن تكون عليه من حجاب يسترها مثلما اهتم بنظرة عينيها وطريقة كلامها وطريقة مشيتها.

(9)

((قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ)) 28 القصص

كان في نية موسى (عليه السلام) الوفاء بعشر سنين وهي عادة الكرام ولكنه كعادته يهدينا درسا في الواقعية وعدم تكليف النفس ما لا تطيق والوفاء بما متعلق بالذمة ومسألة التفضل بالزيادة لا يؤاخذ المرء على عدم الإيفاء بها إن هو أدى ماعليه.. إن نبي الله الزم نفسه بما لا يلزمه شرعا..وإن كان ألزم نفسه ابتداءا لوجب عليه..

(10)

((إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى)) طه 12

العبارة المباركة ((فأخلع نعليك)) فيها من دلالات روحية ومعان عرفانية عميقة استنبطها أولي الألباب..

فكما أن وجود النعلين الماديين غير مناسب وغير لائق لوطء الأرض المقدسة كذلك النعلين المعنويين وهي المتعلقات الخارجية حتى المباحة منها فكان على الكليم أن يخلع مع النعلين في قدميه كل مافي قلبه سوى الله تعالى حتى وإن كان هذا الحب مباحا كحب الزوجة والولد عليه وهو يطأ الحرم الإلهي المقدس أن يأتي مجردا من همومه وهواجسه وميوله البشرية مهيأ روحيا وفكريا لتحمل أعباء الرسالة..

(11)

((وما تلك بيمينك يا موسى*قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى*قال ألقها يا موسى*فألقاها فإذا هي حية تسعى*قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى*واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى*لنريك من آياتنا الكبرى))طه: ١٧ ــ ٢٣

موسى بشخصيته الإيجابية المستثمر كل اللحظات المهمة فكيف بأعظم وأجل اللحظات التي يمكن أن يتصورها بشر.. وبعد أن زال عنه شيء من رهبة الموقف واستشعر حلاوته لم يكتفي بالرد على السؤال الإلهي الكريم لم يكن استفهاميا ونبي الله يدرك ذلك ولكنه يرد بتفصيل يعلم يقينا أن لا داعي له ولكنه يغتنم الفرصة لأكبر قدر من الإطالة للحظات الجلال والعظمة وهو بحضرة رب العزة فلا يكتفي بالإجابة على السؤال المحدد بل يعدد فوائد العصا التي لم يُسأل عنها.

ولكن الحكمة وراء السؤال فتلك العصا التي يستخدمها نبي الله في شؤون حياتية معتادة هي ذاتها التي سيكون لها دور كبير في حسم الصراع مع أعداءه.. فأمام طاغية كفرعون لا بد من أسباب مادية لهزيمته وسلاحا بيد الكليم المرسل وهذه العصا تكفي بحول الله وقوته

فهي مجرد سبب، عصا بسيطة يهش بها موسى على غنمه ويتوكأ عليها وله فيها مآرب أخرى..بمشيئة الله تعالى وسّر يودع فيها تتحول الى آية كبرى تنخر عرش الظالمين وتهزم أكبر قوة غاشمة على وجه الأرض في ذلك الوقت...هذا هو حجم الطغاة الحقيقي مهما تفرعنوا وطغوا وتجبروا..

(12)

((اذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تنيا في ذكري*اذهبا إلى فرعون إنه طغى*فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى*قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى*قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى)) ٤٢ - ٤٦ طه

مما يدعو للتفكر في الوصية الإلهية لموسى وهارون (عليهما السلام) بشأن تعاملهما مع الرسالة والمرسل اليه:

- عدم التهاون والحزم في تنفيذ الأمر وبذل أقصى جهد في تنفيذ المهام الرسالية.
- ان الحزم لا يتعارض مع قول الحق بطريقة ليّنة للخصم وهناك فارق بين قول الحق ب(لين) واللين في قول الحق.. فقول الحق باللين تتعلق بالطريقة لايصال القول فيما اللين بقول الحق يعني المداهنة.
- في كثير من الأحيان الطريقة المهذبة اللينة تحترم انسانية الآخر ولو كان كافرا مما تجعل ردة فعلهم ليست حادة وموقفهم أقل عنادا في رفض الحق.
- إن الكلام العقلاني المتزن والواضح يكون أكثر إقناعا وأقل أخطاءا من الأسلوب الحاد الانفعالي الذي قد يولد ردة فعل مماثلة في الحدة.

- إن العدو وبحكم تملكه لوسائل البطش القانونية والمادية قد يجد مبررا لتصفية الداعية بحجة تطاوله ومساسه بالنظام العام فتقتل الدعوة بمهدها..

(13)

((قال فما بال القرون الأولى*قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى)) 51 -52 طه

في حواره مع موسى وهارون (عليهما السلام) أثار فرعون نقطة هامة تتردد في أذهان البسطاء ويستغلها المشككون بخبث وهي مصير أجيال البشر التي ماتت قبل ظهور النبي..
فطن موسى الى خطة فرعون في إثارة مسائل تلتبس في الأذهان الهدف منها التشويش على جوهر الدعوة الموسوية..
لذا فإن نبي الله ذكرإجابة عامة تؤكد على حقيقة إيمانية وتوحيدية وعقائدية تتعلق بصفات الهية لرب حكيم عليم لا تشتبه عليه أعمال العباد وهو حافظ لتلك الأعمال لا يخفى عليه شيء منها ولا ينسى فهو خالق كل شيء وربه وبارئه،
وقد وجد (عليه السلام) الفرصة مواتية أن يذكر ما يدلل على تلك الخالقية والإحاطة والقدرة والرحمة ذاكرا أمثلة لأكثر الأشياء وجودا في حياتهم الأرض التي يستقرون فيها يسيرون عليها وما ينبت على تلك الأرض من نبات وشجر وعشب.. في اشارة الى أن من يحط علما وقدرة ورحمة بكل ذرة في هذا الوجود كيف يضل وينسى سيد هذا الكون وهو الإنسان..

(14)

((وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ *قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ *رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ)) 120 -121 الأعراف

من الأحداث الهامة في الدعوة الموسوية التي تستدعي التفكر توبة السحرة.

ما الذي جعل فئة تحترف السحر وفنونه أن تتوب وبتلك السرعة المذهلة؟

كيف وصلوا لتلك الدرجة من التوحيد والتسليم والثقة بالله تعالى؟

ما هو التفسير الذي تتقبله عقولنا لتحول الأنسان في لحظة من قاع الخطيئة الى قمة الفضيلة؟

كيف تتم تلك الانتقالة النوعية المميزة والخاطفة؟

كيف انتقل السحرة من انحطاط درجة الاستعانة بعزة فرعون **((افألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون))**لشعراء: ٤٤ الى سمو درجة اللجوء المطلق الى الله تعالى **((قالوا لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون))**الشعراء: ٥٠؟

هل كانت هناك مقدمات لتلك التوبة النموذجية والتي لا نجدها الا نادرا في التاريخ؟

ماذا قصد السحرة **((إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين))**الشعراء: ٥١ هم ليسوا بأول من آمن بموسى؟ ثم لماذا قالوا **((قالوا آمنا برب العالمين*رب موسى وهارون))**الأعراف: ١٢١ – ١٢٢لماذا لم يكتفوا بذكر (رب العالمين) ما هو المغزى من ذكر (رب موسى وهارون)؟

ما يقصدون بإكراههم على السحر **((إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى))**طه: ٧٣ ما هو وجه إكراه فرعون لهم وهم من اشترطوا الأجر إن كانوا الغالبين؟

لماذا أتهمهم فرعون بالتخطيط لانقلابهم العقائدي المباغت والتواطؤ مع موسى (عليه السلام)؟

تلك الأسئلة وأسئلة أخرى تنقدح في الذهن من موقف السحرة المثير.. سنحاول أن نقف على محاولة الاجابة عليها:

- إن السحرة هم أهل احتراف وصنعة ويعلمون دقائق حرفتهم يميزون بين السحر والمعجزة لذا حين جاءهم موسى بمعجزته وجدوا فيها ما لا يتفق مع فنون السحر إن آية موسى (عليه السلام) لا تقوم على خدع بصرية وإيهام للعقول كما هو شأن سحرهم.
- بالنسبة لتوبة السحرة فقد ذكرنا أنها بدأت لحظة وقوع التنازع بينهم (كما أشرنا) فنجواهم كانت نجوى أهل علم ودراية.. والله أعلم بما دار بينهم.
- إن لحظة الانقلاب والتحول من معسكر الضلال الى الهدى وإن بدا مفاجأ وآنيا.. لكنه في الحقيقة ينطوي على مقدمات نفسية كثيرة وتراكمات يقينية تدرجية هواجس ـ شكوك ـ ظنون ـ ومن ثم قناعات فيقين.. قد تحصل النتيجة بلحظة زمنية إلا إن مقدماتها تسبقها بمدة تطول أو تقصر.. لقد عاش السحرة صراعات نفسية حادة سبقت إعلان توبتهم..
- لقد ذكروا إيمانهم برب العالمين وخصصوا رب موسى وهارون كي لا يلبس فرعون على الناس من جديد إذ إنه كان يسمي نفسه بغرور رب العالمين !!..
- ربما الإكراه الذي كانوا يقصدونه هو الإكراه المعنوي لا المادي وعدم تمكنهم من الرفض

فربما جاءوا بإرادتهم ولكنهم بعد النجوى وتنازع الأمر بينهم أرادوا التراجع ولكن فرعون وملأه أكرهوهم على عدم التراجع.. ولا يتعارض طلب الأجر مع الإكراه..

((وألقي السحرة ساجدين))

بقي أن نذكر أن العبارة المباركة ((وألقي السحرة ساجدين)) هو تصوير لكيفية السجود فتعبير ألقي المبني للمجهول يوحي بأن قوة خفية عظيمة قد جذبت السحرة دون إرادة منهم أو اختيار.. لا ندري بالضبط ما الذي تبين للسحرة ربما انكشف لهم غطاء الحقيقة فرأوا

ما لا يراه غيرهم ربما تدخلت العناية الإلهية لتقام الحجة على فرعون وملأه..

(15)

((وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتا في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين)) 11 التحريم

إعلان السيدة آسيا زوجة فرعون اسلامها ودخولها في دين موسى (عليه السلام) كانت ضربة مؤثرة على الطاغية لأنها جاءت من الجبهة الداخلية لفرعون من قصرة ومن حجرته الخاصة لقد كسرت هيبة وعظمة فرعون التي اصطنعها وشعارات أنا ربكم الأعلى..وما أريكم الا ماأرى..وطريقتكم المثلى.. قد ذهبت أدراج الريح وأن الجدار الحديدي قد بدأ بالانهيار وأن رب السذج والهمج الرعاع بدأ يخاف ولا يستطيع مسك زمام أهل بيته وخاصته..
ولزاما علينا أن نقف عند دعاء السيدة آسيا وما يحمله من دلالات عظيمة تمثل عمق إيمانها فقالت ((رب ابن لي عندك بيتا في الجنة)) قدمت المكين على المكان (عندك بيتا) ثم (في الجنة) ثم (ونجني من فرعون وعمله) ليس منه فحسب بل من عمله وكفره لم تطلب نجاتها بشخصها بل نجاتها بدينها، ترتيب الأوليات حسب الحب والولاء والإخلاص مما يكشف عن عظم شخصية آسيا وعمق إيمانها..

(16)

((إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم)) 76القصص

على هامش قصة نبي الله موسى (عليه السلام) ومثلما ظهرت شخصيات مؤمنة في وسط اجواء الكفر.. ظهرت شخصيات منافقة

وكافرة في محيط نبي الله والمحسوبين على صف الإيمان في بادئ أمرهم..
من تلك الشخصيات المنحرفة قارون..
لقد أوتي قارون ثروة هائلة كما يذكر التاريخ ويقال انه كان ذو مكانة في المجتمع الإسرائيلي ولعل السؤال الذي يدعو للتأمل:
ما الذي كان ينقص قارون ليكون تابعا لفرعون؟
وهذا السؤال يقودنا لسؤال آخر.. ربما يصلح لأن يكون جوابا للسؤال الذي تقدم:
هل الامتيازات المادية وحدها ما تغري النفوس المريضة للتزلف للسلطان وخدمته؟
الظاهر أن حب الجاه والأضواء حب لايقل شدة وعنفوانا عن حب المال إن لم يكن يزد عليه وكثيرا ما سمعنا بأناس يتزلفون للسلطان دون أن يكون المردود المادي هدفهم الرئيسي..و يبدو أن المسألة تتعلق بعقدة نقص وإحساس بالدونية لدى بعض النفوس ترى في وجودها تحت مظلة السلطان كفيلة بسد تلك العقدة المستحكمة.. حبا بالوجاهة الدنيوية الكاذبة المنافقة التي يضفيها المجتمع المنافق...
ويمكن ذكر النقاط التالية في قضية قارون:

- إن الدين لا يحارب الثروة التي تكون جسرا للآخرة بأعمال الخير وإشباع الحاجات المشروعة للفرد والمجتمع وإنشاء القوة الاقتصادية للبلد.. لا يحارب الثروة التي يبتغي بها الإنسان الدار الآخرة بل يحارب عبادة الثروة وتنميتها بطرق غير مشروعة على حساب القيم والعلاقات الإنسانية يحارب الثروة التي تجمع من عرق المستضعفين وكرامة الفقراء لتمتلئ بها جيوب المترفين والمسرفين.. يحارب الثروة التي يفتتن بها عباد الله وتحاصر البسطاء.

- إن الانبهار بزخرف الدنيا ومظاهرها هو شعور يصاحب النفوس التي تريد الحياة الدنيا وتطمئن لها وتجعلها الغاية وتجعل الحظ مرهون بقدر الحصول على أكبرقدر من زينتها..
- إن أهل العلم وحدهم من يعلم حقيقة هذه الدنيا والحكمة من الابتلاء بزينتها وزخرفها لأنهم أدركوا بعين البصيرة أن ثواب الله تعالى خير وأعظم وأجل وأسمى وأزكى وأنمى وأوفى لكن ذلك الجزاء لا يناله الذين خدعوا والذين تمنوا بل أولئك الصابرون الموقنون الذين عرفوا الدنيا وحقيقتها..
- الإنسان ليس مستقلا ولا قادرا على إنشاء ثروته بجهود ذاتية ومسألة توفيقه في ذلك لا يعني أي خصوصية له أو قيمة استثنائية تميزه عن غيره من البشر ففي النهاية هو وكيل غير أصيل وهو مؤتمن وليس صاحب الأمانة..
- إن الذين يتأرجحون بين حب الدنيا وزخرفها وبين الدين وظاهره والبحث عن رخصه ومستحباته أولئك الأكثر تعاطفا مع أهل الدنيا وعبيدها ولكن هذا التعاطف سرعان ما ينقلب لشماتة بهم حين يتعرضون لغضب الجبار..ويخافون على أنفسهم وإن كان حب الدنيا لم يخرج من قلوبهم..
- إن إرادة العلو في الأرض فضلا عن العلو والاستكبار من أحد الأسباب الموجبة للحرمان من القرب الإلهي وعلى من يريد الدار الآخرة عليه أن يتخلى عن التكبر والعلو ولو على مستوى الإرادة والتمني..

..

(17)

((واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين*)) 175 الأعراف

من الشخصيات السلبية التي ظهرت في صفوف معسكر الحق (الذي آتاه الله من آياته فانسلخ منها)
بدأ لابد من التفكر في عبارة ((فانسلخ منها)) فيها تعبير مبهر جدا كأنه يصور حالة الانسلاخ ونزع الجلد وكأنه هو من خرج من آيات الله التي كان يعيش في ظلها ((فأتبعه الشيطان)) وبعد خروجه من دائرة الإيمان مباشرة أتبعه الشيطان الذي كان متربصا به مما يعني أن الشيطان لا يجرؤ على من لم ينسلخ من آيات ربه.
وكان محسوبا على صف العلماء من بني إسرائيل.. وقد علمه نبي الله الكثير من العلوم وكان واسع الاستيعاب والفهم وفُتن بعلمه الكثير..
(يقال) أن دعاءه كان مستجابا ولهذه الجزئية (استجابة الدعاء) محورية في الحدث فقد رأى في نفسه فضلا وميزة وفشل في قراءة نفسه ولم يعرفها،
(ان معرفة النفس من أصعب وأنبل وأعز أنواع المعارف فهي التي تقود لمعرفة الحق (سبحانه وتعالى))..
في مرحلة ما فإن تلك النفس تخادع صاحبها تطول تلك المخادعة أو تقصر حتى يظن أنه عرفها فتعرض له فتنة تزله عن الطريق حتى يفيق..وإذا كان سوء الظن منهي عنه فإنه ليس كذلك مع النفس بل من المفروض أن تسيء الظن بها..ويبقى الإنسان في جهد وجهاد ومجاهدة مع تلك النفس لا يثق بها ولا يطمئن حتى آخر لحظات حياته)..
لقد كان هذا الشقي لا يعرف نفسه..حتى عرضت عليه دنيا فرعون فغرق فيها، الدنيا التي طالما ذمها وحذر منها الإسرائيليين وهو يلقي المواعظ الموسوية عليهم..انغمس في أهواءها..
ولقد استخدمه فرعون كورقة ضغط معنوية على بني إسرائيل..
هنا يمكننا تدبر بعض الدروس المستفادة من فتنة الذي انسلخ من آيات ربه:

- إن النفس البشرية لا يمكن استقصاء أسرارها والوقوف على مكنوناتها حتى من قبل صاحبها فأحيانا يفشل الإنسان على التعرف على نفسه طيلة حياته وأحيانا يبحث عنها بتخبط وأحيانا تخادعه من حيث لا يشعر..فيطمئن لها وفي ذلك هلاكه..
- إن العلم ليس غاية بحد ذاته.. بل هو وسيلة لإستحصال المعارف لبناء الأنسان روحيا وعقائديا.. والعلم الذي لا يهذب النفس ويؤدبها ولا يردع أهواءها هو حجة على صاحبه وليس ميزة له وامتياز..
- إن ظهور بعض الكرامات في أثناء طريق بناء الذات وتزكيتها لا يعني وصول الإنسان لبر الأمان وظهور هذه الكرامة أوتلك قد تكون مؤشرا ودلاله أن الإنسان يسير في الاتجاه الصحيح ولكن العبرة بنهاية الطريق والثبات عليه.
- إن المشيئة الإلهية قادرة على سلب الاختيار من الإنسان وإكراهه على السير في طريق الحق ولكن ذلك يعني عبثية الثواب والعقاب فالباري عز وجل يريد من الإنسان باختياره وحريته ان يسلك ذلك الطريق الموصل اليه (سبحانه)وهنا تكمن فلسفة الوجود الإنساني على هذه الارض.
- **((وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ))** إن عدم سمو الإنسان بنفسه نحو المعالي وتخليه عن القيم المعنوية سيؤدي الى الإخلاد الى الأرض بكل ما تمثله من قيم هابطة.. منحطّة.. ومتسافلة.. والعلم بحد ذاته لا يكون عاصما للإنسان مالم يترجم الى عمل ومراقبة للنفس وتزكية..
- **((فمثله *كمثل الكلب* إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث))** 176 الأعراف.. إن الوصف القرآني للساعي وراء الدنيا وزخرفها وسرابها المغري الذي مثله كمثل الكلب وصف دقيق جدا وواقعي فالسعي بلا ضمير يردعه ولا دين يضبط حركته في عناء دائم في حال ربحه وخسارته مثله كمثل الكلب المسعور الذي يخرج لسانه لاهثا لا يعرف ظمأه من إرتوائه..

(18)

((وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحا لعلي أطلع إلى إله موسى وإني لأظنه من الكاذبين)) 38 القصص

أراد فرعون أن يقوم بعملية إلهاء للرأي العام الذي شغل بدعوة موسى (عليه السلام) وتعاظمها وإيمان السحرة فأراد تشغيل اليد العاملة وإحداث حركة اقتصادية ينشغل بها الناس ولو مؤقتا هذا من جهة ومن جهة أخرى أراد استعراض قوته التي شك الشعب بفاعليتها..

فرعون وبحركة استعراضية يقول لهامان وزيره وأبرز الشخصيات المؤثرة في معسكره... يأمر هامان أن يبني له صرحا شاهقا لينظر إلى اله موسى والحق اننا لا يمكننا تخيل ما عليه الطغاة من السذاجة والتيه والغرور الذي أعمى عقولهم فهل كان فرعون يعني أو يعي ما يقول أم كان يسخر من إدعاء موسى (عليه السلام)

وبالفعل يقوم هامان ببناء برج عملاق شاهق هو قمة ما وصل اليه العمران في ذلك الوقت يقوم ببناءه عشرات الآلاف من العمال لتحقيق نزوة وفكرة بلهاء لفرعون !!

لكن السؤال هنا: كيف خطرت هذه الفكرة لفرعون؟

لماذا ظن بوجود اله موسى في السماء.. مع إن موسى في كل خطاباته لفرعون كان يوضح حقائق توحيدية وخلق الوجود وأن الله لا يحده مكان وهو في الأرض إله وفي السماء إله،

فمن أين استوحى فرعون هذه الفكرة والتي لم يدعها الطرف المقابل؟

ان خطوة فرعون رغم سذاجتها وسخافتها الا إن ذكرها في القرآن الكريم يستدعي التأمل في دلالتها..مما يقودنا الى فكرتين:

- ارتباط ذكر الحق سبحانه وتعالى بالسماء وهو أمر يغلب على الوجدان الإنساني الفطري ربما لرمزية السماء للعلو والسمو

والرفعة والكمال المطلق.. في حين تمثل الأرض في ذلك الوجدان.. ماهو هابط ومتدني.. لا يليق بالذات المقدسة.. فحين يدعو الإنسان يرفع يديه الى السماء وحين تضيق عليه السبل ينظر الى السماء طالبا الفرج وحين يتعرض للظلم يرمق السماء بطرفه مستنجدا وهو شعور فطري الذي لايستطيع أحد تجاهله حتى أولئك الملحدين والمنكرين لوجود الله سبحانه..

- إن النظرة المادية والحسية ورؤية المعبود بالبصر.. فكرة راودت البشر منذ القدم ومنها نشأت عبادة الأصنام التي تقرب الى المعبود غير القابل للرؤية..وسنرى أن الإسرائيليين أنفسهم قد وقعوا في فخ هذه الفكرة.. والى اليوم بقيت المذاهب المادية لا تؤمن برب غير محسوس رغم إيمانها بكثير من الأشياء التي لا تستطيع رؤيتها.. إنها سذاجة العقل البشري حين يضيق أفقه..

(19)

((وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم)) 88 يونس

وجود وسائل الإغراء المادية بيد أهل الفسق والضلال علاوة على كونه وسيلة الفساد والإفساد في الأرض فإنه يشكل عامل ضغط نفسي يحاصر المؤمنين سيما ضعيفي الإيمان منهم ويؤثر على روحهم المعنوية

ويشعر موسى (عليه السلام) بالخطر على الرسالة فيدعو ربه الذي لايخفى عليه شيء.. ان يطمس على ذلك المال لأن وجود المال بيد العدو لا يشكل نقطة حاسمة في الصراع فقط بل هو فتنة وإضلال وتظليل..

فهم لا يكتفون بضلالهم واستخدام تلك الأموال لإشباع شهواتهم فقط بل يقومون بنشر الثقافات المنحرفة والشذوذ بكل أنواعه ليفسدوا في

الأرض.. لذا فموضوع دعوة موسى ليس المال بحد ذاته بقدر ما هو استخدام ذلك المال الحرام لحرب الله ورسوله..

(20)

((*كَلا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ*)) 62 الشعراء

درس عقائدي عظيم ذلك تعلمته الأمة من موقف نبي الله (موسى) حين رأى جيش فرعون بكل عدته وعدده يتبعهم والبحر من أمامهم.. في المنظور المادي ليس هناك ادنى احتمالية لنجاة موسى ومن معه فالمعادلة تميل الى كفة فرعون وجنودة وهذا ما بدا لأصحاب نبي الله الذين قالوا **((إِنَّا لَمُدْرَكُونَ))** لقد رأوا الأمر بعقولهم ولكن نبيهم كانت له رؤية مختلفة تماما..

كان يرى بقلبه المطمئن بإيمانه العميق وثقته المطلقة برب قادر عظيم قوي عزيز بر رحيم لن يخذله لذلك قال **((*كَلا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ*))** وكان ربه عند حسن ظنه به

ولكن كيف؟ لم يكن لدى موسى (عليه السلام) سوى عصاه.. هل تكفي !..

مع الله كل شيء يكفي):(فأوحينا إلى موسى أن *اضرب بعصاك* البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم)(ذات العصا التي يتوكأ عليها ويهش بها على غنمه هي التي اقتحم بها قصر فرعون للمرة الأولى وهي التي أبطلت سحر السحرة هي ذاتها التي اليوم التي تحسم المعركة تضرب البحر لينفلق ليعبر موسى ومن معه الى ضفة الأمان وليهلك فرعون وجيشه ويبتلعهم اليم.. حين يكون الله معك لا تفكر في الأسباب كل شيء سيكون سببا لنجاتك..

(21)

((وَإِذْ قُلْتُمْ ياموسى *لَن نَّصْبِرَ على طَعَامٍ وَاحِدٍ*)) 61 البقرة

محنة نبي الله موسى (عليه السلام) لم تكن مع فرعون بكل جبروته وغطرسته وقوته الغاشمة كانت لديه محنة داخلية في مجتمع حاول بكل الأساليب غرس مفاهيم العقيدة فيه ولكن كانت النتائج مخيبة لآمال نبيهم فكثير منهم لم يشكروا نعم الله عليهم وأهمها إنجاءهم من فرعون وبطشه..

كانوا دائمي الشكوى والتذمر والاعتراض..

كان أول اعتراض سجلوه على نبيهم هو طبيعة بيئتهم الصحراوية الجديدة وقد يعذرون في ذلك كونهم سكان مدن ولم يتعودوا على جو الصحراء حيث لا شجر ولا ماء ولا عمران..

فيبعث الله تعالى غمام يظلهم من حرارة الشمس فتتحول الأجواء اللاهبة الى أجواء ربيعية معتدلة ويرزقون بماء عذب زلالا ويطعمون من مائدة السماء من المن والسلوى.. طائر مشوي وحلوى يأكلوا منها حتى يشبعوا..

لكنهم يعترضوا من جديد.. فماذا يريدون؟

قالوا لقد سئمنا هذا الروتين والنمط المتكرر من الحياة..

نريد أن نأكل كما كنا ناكل وكما يأكل الناس من أنواع البقوليات والخضروات؟ قد يكونوا ساذجين أو بسطاء أو معاندين أو بطرين..

قد نستغرب كثيرا منهم.. لكن يجب الا نسرف كثيرا في استغرابنا لأن كثيرا منّا يعيش في داخله ثقافة

(لن نصبر على طعام واحد)....

إن بني اسرائيل كانوا نماذج بشرية..و كان اعتراضهم يمثل الرأي العام المزاجي..

لكن السؤال الذي يجب الا نغادره دون التأمل في إجابته هو: ماذا يريد الإنسان في هذه الأرض.. ما هي حاجته الفعلية؟

وإذا كانت الإجابة كما يصورها الماديون والدنيويون الماديون هي إشباع الحاجات المادية والرغبات فبماذا يبرر أصحاب المدرسة المادية ذلك الشعور بالملل والكآبة والضياع الذي يشعر به الإنسان

الذي على تمتع بكل ألوان الرغبات المادية في أكثر البلدان رفاهية وازدهارا؟..

هناك حقيقة لامفر من الاقرار بواقعيتها وهي إن الإسراف في إشباع الرغبات المادية دون الالتفات للحاجات الروحية والمعنوية السبب الذي يكمن وراء الإحساس بالفراغ الداخلي والشعور بضياع الهدف..

هو الذي يشعر الإنسان بذلك الخواء الروحي..

لتتضح حقيقة أخرى وهي أن الإنسان لم يخلق لهذه الحياة الدنيا وإنه غريزيا في بحث دائم عن الجانب الروحي الذي يحاول أن يسده بالقيام بنشاطات اجتماعية وتكوين علاقات إنسانية يسد بها الفراغ الذي تسبح فيه روحه..

نشاطات تكون عبثية في بعض الأحيان.. فيتجه الى البحث عن متنفس عاطفي قد يكون من بني جنسه يهيم به عشقا وينظم في حبه القصائد العصماء وإن لم يجد يحاول يملأ ذلك الفراغ العاطفي بتعصب لقومية أو رياضة أو فن أو لأعراف بالية فإن لم يجد فيتجه لحب نفسه وحين يحبط تماما يتجه لتوهم العاطفة مع الحيوان أو الآلة كما هو سائد الآن.

ولا مخرج ولا ملجأ الا بالعودة الى الله (سبحانه وتعالى)حيث ينعم الإنسان بذلك الفيض الوجداني الذي يجده متى شاء ودون عناء..وليس مطلوبا منه سوى إزالة الحجب التي اصطنعها بأهواءه وعلائقه الدنيوية.....

لقد أحس بنوا اسرائيل بهذا الفراغ الروحي حيث لا عمل يمارسونه ولا بحث مضني عن الطعام ولم يلتفتوا الى مهمتهم العظيمة التي يفترض أن يتحملوها وتكوين النواة الخيرة التي تنقذ العالم من الضلال..

لم يلتفتوا الى الجانب المعنوي لحياتهم فأحسوا بذلك الفراغ الذي قادهم الى طلبتاهم الساذجة تلك..و من ثم لانحرافات أخرى خطيرة.

(22)

((وجاوزنا ببني إسرآئيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون))الأعراف: ١٣٨

الفترة الطويلة التي قضاها الإسرائيليون تحت هيمنة فرعون ورغم حالة العداء بين الطرفين الا ان ذلك لم يمنع تأثرهم ببعض ثقافاتهم والتعبدية على وجه الخصوص بحكم ألفتهم رؤية الأصنام بأشكالها المختلفة وطقوس العبادة الفرعونية إضافة إلى حداثة عهدهم بعبادة التوحيد وعدم الارتقاء بأنفسهم كما يجب لتعاليم نبيهم ووصاياه لذا فإنهم استبدلوا من جديد الذي هو ادني بالذي هو خير..

فقد سألوا نبيهم ذات يوم سؤالا وقحا ينم عن جهل عميق..سألوه أن يجعل لهم إله كما لغيرهم آلهة..

إنه انحراف خطير بل انه ينسف قواعد الإيمان الذي يحاول نبيهم تثبيتها

ويغضب نبيهم غضبا شديدا على عظيم كفرهم وجهلهم ٍ ويعدل القوم عن فكرتهم الشاذة خوفا من نبيهم.. ولكن أصل الفكرة بقيت دفينة في نفوسهم يتحينون الفرصة لإظهارها..

(23)

((*وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ* قَوْمك يَا مُوسَى)) 83 طه

كان الموعد ثلاثين يوما.. لكن موسى (عليه السلام) يتعجل القدوم لميقات ربه يدفعه الشوق وفرحة اللقاء.. يقدم قبل الموعد المحدد فيقتضي تمديدها عشرة أخرى.. وما أشقها مع جمر الانتظار..

هناك مع قوم نزقون يخلق تأخر رجوع نبي الله خلق مشكلة في صفوف الاسرائليين، فقد وجد المنافقون فرصة مناسبة لبث

الأراجيف وتناقل الأقاويل الباطلة التي ألقاها الشيطان..فقالوا إن نبي الله لن يرجع..
وقد حاول هارون وبكل ما لديه من حكمة وسعة صدر ومنطق أن ينفي تلك الإشاعات الكاذبة دون جدوى بل تمردوا عليه وعصوه وحاولوا قتله..
هنا ظهر السامري على مسرح الانحراف..
ليصنع لهم الإله الذي صنعته الأهواء.. فجمعوا حلي وذهب كانوا قد غنموه من قوم فرعون فصهره السامري وصاغه على شكل عجل ورمى فيه قبضة من أثر فرس جبرئيل في يوم عبور البحر.. وفتن الناس بالعجل فسجدوا له الا قليل منهم.
وكان هارون (عليه السلام) في موقف حرج وصعب للغاية.. فكان بين خيارين أحدهما أصعب من الآخر بين الالتزام بوصية نبي الله الذي استخلفه وعهد إليه أن يسير في القوم بالحسنى وأن يحافظ على وحدة الصف حتى يعود وبين الوقوف بوجه الانحراف الكفر فتكون الفتنة والحرب الداخلية..
لذا فإنه بالغ في نهيهم وتحذيرهم من غضب الله ورسوله وأوصاهم بالصبر والثبات وانتظار عودة نبيهم دون جدوى..

(24)

((ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال بئسما خلفتموني من بعدي أعجلتم أمر ربكم وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه قال ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين*قال رب اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين)) 150-151 الأعراف

ويعود موسى غضبانا أسفا وترسم الآيات المباركة التالية صورا رائعة للانتكاسة الخطيرة التي حدثت في معسكر الإيمان والحالة

الصعبة لموسى النبي ولهارون الوصي والحرص على الرسالة والجهد في تثبيتها..

هل نستطيع تخيل تلك اللحظة رجع فيها موسى ليجد قومه وقد عبدوا العجل.. موقف لا يمكن وصفه،
والعبارة المباركة ((وألقى الألواح)) تصور حركة نادرة في تاريخ الرسالات بل لم تتكرر كيف لموسى أن يلقي الألواح !!
فتلك الألواح التي ألقاها الكليم وصايا الهية تمثل خلاصة الرسالة وأمل موسى وثمرة لجهده وجهاده صبره ومصابرته لكن هول المفاجأة التي صعق بها موسى كان أكبر جعله يذهل عن الألواح رغم قدسيتها لديه..
ورغم انها حركة تلقائية حكمها موقف استثنائي لكننا يمكن ان نفهم منها درسا ومعنى دقيق جدا..
إن الإنسان هو هدف الأديان فإذا ما انهارت قيم الإنسان لا معنى للألواح والكتب مهما بلغت قداستها سواء بقيت بيده أو ألقاها..

(25)

(وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزوا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين* قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون* قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين* قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي إن البقر تشابه علينا وإنآ إن شاء الله لمهتدون* قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث مسلمة لا شية فيها قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون* وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون* فقلنا اضربوه

ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون))البقرة: ٦٧ ـ ٧٣

من الأحداث الهامة التي حدثت في مسيرة الدعوة الموسوية ما عرفت ب(حادثة البقرة) وملخصها:
..وقعت جريمة قتل أُتهم فيها شخص بريء وانشغل الرأي العام كثيرا بها..و لم يجد بني إسرائيل غير نبيهم يلجئون اليه في مثل هذه الحالات..ونبيهم الكريم يرجع الى الباري (عزوجل) الذي يأمرهم أن يذبحوا بقرة..أي بقرة.. ولكنهم وبسوء نواياهم يفهموا الأمر على أنه سخرية منهم فما علاقة قضية القتل بذبح بقرة ! قي دليل آخر على طبيعة الشخصية اليهودية غير المذعنة،
لذا فقد طلبوا من نبيهم أن يسأل ربه عن ماهيتها وعن لونها وعن أوصافها.. وكانوا كلّما شدّدوا شدّد الله عليهم.. حتى كانت البقرة التي وصفتها الآيات الكريمة..
وبعد أن أحضروها أمرهم نبيهم أن يضربوا القتيل ببعضها فإذا هو حي ينطق بالحق ويشهد على من قتله وهو غير من اتهموه ظلما..وهكذا حلت هذه القضية الجنائية ولكن بقيت القضية العقائدية الكبرى في دلالتها..
قضية بقرة بني اسرائيل.. من المهم أن نقف عليها طويلا وعميقا جدا، فالتسليم للأمر والمسارعة في تنفيذه دون الخوض في تفاصيله يفصح عن ذات مؤمنة واثقة بالآمر حتى وان لم تتعقل الأمر وكثيرا تتكرر قضية البقرة في حياتنا دون أن نلتفت اليها فبدلا من الالتزام المباشر بالأحكام والوصايا الالهية نجهد أنفسنا في محاولة فهم فلسفتها وفحواها....إننا نريد تحكيم عقولنا في كل أمر شرعي في حين أن بعض الأحكام من أهم متطلباتها هو السمع والطاعة الفورية والإقرار بقصور عقولنا عن فهم علّتها..

.. لذا نجد أن أولياء الله تعالى وانطلاقا من ثقتهم بالآمر الحكيم لا يضيعون الوقت بالبحث عن التفاصيل والحيثيات الصغيرة والتي ينشغل بها إما شاك أو معاند أوجاهل يريد التهرب من التكليف.. وغاية ما يشغل تفكير المؤمن حقا هو دقة التنفيذ والإخلاص حتى إتمام العمل)

(26)

((وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقبا*فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر سربا*فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا*قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجبا*قال ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصا*فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما*قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا*قال إنك لن تستطيع معي صبرا*وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا*قال ستجدني إن شاء الله صابرا ولا أعصي لك أمرا*قال فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا *فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها قال أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرا*قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا*قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا*فانطلقا حتى إذا لقيا غلاما فقتله قال أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا* قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا* قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرا *فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه قال لو شئت لاتخذت عليه أجرا*قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا*أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر

فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا*وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا *فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما *وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمري ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا)) الكهف: ٦٠ ـ ٨٢

((هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا))

لقد بدأ موسى بالشرط مع إنه المتعلم هنا وكما يقتضي الحال..

العبد الصالح غير الجاهل بمكانة الكليم عند رب العزة والجلال يشترط على موسى (عليه السلام) الا يسأله عن أمر حتى يخبره عن الحكمة منه..

ويقبل موسى (عليه السلام) بالشرط معلقا ذلك على مشيئة الله تعالى ولكن العبد الصالح يتوقع بل يجزم بعدم استطاعته الصبر ويعني موسى الأنسان الذي يتصرف بظاهر الحال.. وتبدأ الرحلة المثيرة والتي لم تستمر الا ثلاث مراحل مثلت قمم ابتلاءات البشر..

الدروس والعبر من رحلة موسى (عليه السلام) والعبد الصالح:

(1)

تقلهما سفينة الى الجانب الآخر من البحر لأناس طيبين يرفضون بكرم أخذ الأجرة منهم..موقف شهم وكريم..يفترض أن يقابل بالمثل على الأقل..لكن العبد الصالح بدلا من ذلك يقوم بخرق السفينة..موسى (عليه السلام) يدهش لتصرفه بل ويحتج على هذا

التصرف الذي رآه بظاهر حاله غير غير مناسب..فيتلقى الأنذار الأول من العبد الصالح

(2)

في طريقهما يجدوا أولاد يلعبون وفيهم غلاما فيقوم العبد الصالح وبلا مقدمات بقتله.. أمام هذا التصرف وتلك الجريمة الجنائية التي تنسيه شرطه.. موسى يحتج بشدة تتناسب وعظمة وحرمة إزهاق روح بغير ذنب (حسب الظاهر) بالمقابل يرفع العبد الصالح شدة انذاره لموسى لقد أضاف (لك) على قوله في الأنذار الأول (ألم أقل إنك) في إشارة لشدة الإنذار أو لشدة إحتجاج موسى.

(3)

نزلا بأهل قرية وقد استبد بهم التعب والجوع.. فسألا أهلها الطعام فأبوا أن يضيفوهما فأنكر موسى سوء خلق أهل هذه القرية..وفيما هم كذلك إذ يقوم العبد الصالح بإقامة جدار مشرف على الإنهيار..فيعجب موسى (عليه السلام) من هذا الفعل المجاني في غير مكانه المناسب فأهل هذه القرية الذين لم يقوما بواجب ضيافتها غير جديرين بهذا المعروف فإن كان ولابد من ذلك فالمناسب أن يتخذ عليه أجرا وهو ما قاله للعبد الصالح..
الذي ينهي تلك الرحلة المثيرة والشيقة رغم مشقتها..ولكن ليس قبل أن يوضح الجانب الغيبي المستتر الذي كان السبب وراء احتجاجات موسى..
قبل الخوض في ذلك لابد لنا من الالتفات إلى:
1- ان موسى (عليه السلام) لم يخطئ باعتراضاته على ماقام به العبد الصالح.. بل كان من واجبه الشرعي هو استشعار المخالفة للقانون الظاهري والإنكار على من يقوم بها كائنا من كان.. وباعتباره النبي والمسؤل عن حفظ النظام العام فقد وجد في تلك

التصرفات مخالفة لذلك النظام وخرق للقوانين الشرعية ومن هنا كانت اعتراضاته المشروعة.

2- لقد كان في التكليف الإلهي لموسى بأن يذهب طالبا للعلم الى تلك النقطة القصية من العالم وفي نهاية عمره الشريف دلالة على شرف طلب العلم وإنه يستحق كل جهد وتضحية..

3- إن اشتراط العبد الصالح على موسى بعدم السؤال عما لا يجد له تفسيرا ظاهريا لديه فيه بيان لصعوبة فهم الجانب الغيبي والتعامل معه على المكلف..

4- التخصص في تحصيل المعارف والعلوم هام جدا مع ملاحظة أن التخصص لا يعني الأعلمية..

5- إن العنصر الغيبي في المواقف الثلاث مثل أساسا يقوم عليه البناء الفكري والعقائدي للمؤمن شرط أن يصطحب التطبيق العملي لتلك المواقف الثلاث في حياته اليومية.. فكم من سفينة خرقت لنا وفي خرقها مصلحتنا ولم نصبر.. وكم من ولد غير صالح لم نرزق به وفيه شقاءنا..ولم نصبر! واستعجلنا قدومه بكل ثمن وكم من ولد فقدناه وفي فقده نجاتنا..ولم نصبر !.. وكم من وظيفة أو عمل لم نحصل عليها فلم نصبر ! وتساءلنا عن السبب وكم من رزق مخبأ لنا يبنى له جدار حفاظا عليه من قريتنا الظالمة حتى الوقت المناسب فاستبطأناه..بقنوط وحزن واعتراض..

6- ان الإيمان بالغيب من أهم مرتكزات العقيدة بل إنه يؤسس لكل العبادات..ففي المواقف الثلاث اتضح أن قضية التعامل مع الجانب الغيبي أمر صعب للغاية وأن الإنسان يحتاج الكثير من الجهاد والمجاهدة والصبر والثبات والثقة بالله مدبر حكيم لطيف لما يشاء..

7- قدمت الرحمة على العلم في ذكر النعم التي منّ الباري (عزوجل)بها على العبد الصالح في دلالة عظيمة على أن العلم وحده لايحقق الغاية الألهية مالم تكتنفه رحمة من الله وهي الولاية..

في رحاب قصة نبي اللّه شعيب (عليه السلام)

بسم الله الرحمن الرحيم

((وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط)) 84 هود

(1)

عبادة الله وحده إلها ربا خالقا سيدا صمدا لا ند له ولا ضد ولا شريك له،

كان البيان الأول المشترك لكل رسالات الرسل ما بعث رسول الا وكانت شهادة أن لا إله الا الله بيان دعوته الأول لأنها القاعدة الأساسية للعقيدة الحقّة وكل انحرافات الأمم بدأت حين تزعزع الأساس وضعف الإخلاص في وحدانية الله (عز وجل).

في قصة سيدنا شعيب (عليه السلام) تبرز الجريمة الاقتصادية كعنوان للانحراف.. جريمة التلاعب بمقدرات الناس والغش في المعاملات التجارية ونقص المكيال والميزان.

(2)

((إني أراكم بخير))

قد يسود في المجتمع ضرب من ضروب الغش التجاري في فترة زمنية ما.. يقوم به بعض ضعاف النفوس استغلالا لظرف اقتصادي طارئ او أزمة حرجة في وقت حرب او كوارث طبيعية أو غيرها من الأسباب التي تؤدي احتكار المواد الأولية والتحم بها من قبل فئة ضالة مترفة.. قد يحدث ذلك هنا وهناك وفي كل زمان.. ولكنها تبقى

حالات شاذة ومحدودة وقد تمارس بالخفاء بعيدا عن الرقيب.. في النهاية تبقى حالات يرفضها الضمير الاجتماعي ويحاصر من يمارسها بالمقت والازدراء..

أما ان تمارس حالة الغش بلا مبرر ولا مسوغ وبصورة علنية سافرة ولا يرفضها المجتمع بل ويتخذها جزءا من أخلاقياته ونظامه الاقتصادي فهذا ما يشكل ظاهرة تحارب الفطرة وتعطل قانون الحياة الذي رسمها خالقها(عز وجل) تؤدي الى:

- خلق طبقة متخمة مترفة تتحكم بالمقدرات وتستبد وتطغى وتحاول فرض افكارها المنحرفة التي تدعمها بالمال الحرام بالمقابل وكنتيجة لهذا الجشع تخلق طبقة معدمة مسحوقة من الفقراء والمستضعفين الذين لا يمتلكون وسائل الإنتاج وتحويلهم الى مستهلكين مقهورين وعاملين مسحوقين.. وتكاد تختفي الطبقة المتوسطة التي شكل النواة الطبيعية للمجتمعات..
- تحول الغش ونقص الميزان الى ظاهرة اجتماعية وقانون عام ومن الأسباب الطبيعية للربح وكان إذا اشترى أحدهم يصر على استيفاء أكثر من حقه وإذا باع خسر الميزان وفي الحالتين ارتكب حراما غصبا في الأولى وغشا في الثانية...
- ظهور بعض القيم كأعراض مصاحبة للفساد مثل العبث بمقدرات الطبيعة واستغلال مواردها وتوجيها بغير الوجهة التي أرادها خالقها العظيم.. باعتبار ان السيطرة على تلك الموارد والمقدرات من المقومات الأساسية للاقتصاد مما يستلزم انتهاج الطرق المشروعة وغير المشروعة..

لقد ظهرت سياسة تبريرية لظاهرة الفساد تعاطف معها الكثير إما بحكم الجهل أو القصد السيئ وهي تربط الجريمة وبالأخص الاقتصادية والأخلاقية منها بالحاجة أو الظروف القاهرة لارتكاب الفعل الإجرامي أو المحرم وظهرت مدارس فكرية تروج بشدة لذلك...

ولكن الدراسات الواقعية أثبتت أن نسبة الجرائم المرتكبة تحت وطأة الظرف أو الحاجة هي نسبة ضئيلة بالمقارنة مع تلك المرتكبة لدواعي أخرى مختلفة..
وفي أغلب الأحيان يكون أكثر مرتكبي هذه الجرائم من المترفين والمسرفين ويرتكبوها بداعي الجشع ليس الا ّ..بطريقة احترافية..
فالمسألة تتعلق بفطرة دنست وشح مطاع ونفس أمّارة بالسوء وغياب الوازع والرقيب أكثر مما ترتبط بظروف ملجئة..

(3)

((قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد))87 هود

تساءلوا بحمق وتهكم واستهزاء.. هل صلاتك (دعوتك) تأمرك بترك دين آباءنا.. او لا نتصرف بأموالنا كما نشاء؟
ان هذا منطق لايليق بك يا شعيب واصفين إياه استهزاءا بالحليم الرشيد ربما أرادو التعريض به باعتبار ان صفة الحلم والرشد (من وجهة نظرهم) لا تنسجم مع ما ينادي من مبادئ..
هنا لابد ان نقف قليلا عند عبارة (أصلاتك تأمرك)
فالصلاة الآمرة هي هدف الأديان.. والصلاة التي لا تأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إنما هي طقوس قد يفعل أهل الفسق والضلال أكثر من حركاته الظاهرية بكثير.. فالمطلوب من الصلاة ليس الصفة الشكلية والحركية من قيام وركوع وسجود فقط بل الالتزام بقيمها الروحية وأوامرها ونواهيها الشرعية..
إن من بين أهم وأخطر التحديات التي واجهت رسالات السماء هي إفراغ تلك الرسالات من قيمها ومثلها وأوامرها ونواهيها وتحويلها الى طقوس تمارس بالعادة والاعتياد فيما تنتهك تعاليمها التي تتعارض مع الهوى والمصلحة قولا وفعلا.. كفرا ونفاقا..

قد نستغرب من منطق قوم شعيب.. ولكن علينا ان لا نتمادى في استغرابنا فالصلاة التي رفضها قوم شعيب والتي تأمرهم بما لا يرغبون هي ذاتها التي يرفضها بعض المسلمين فعلا لا قولا إن تعارضت مع أهواءهم مخالفين لأوامرها ونواهيها.. بل إن إتباع الشهوات والرغبات غير المشروعة والتي تتقاطع مع ما تأمرنا بها صلاتنا هو اعتراض عملي على الصلاة التي نؤديها إسقاطا للفرض ...

وأكثر ما يبدوا هذا الأمر واضحا في كسب الأموال والتصرف بها.. ان النظرة الى الملكية والأموال مبنية لدى غالبية الناس على ثقافة خاطئة تقوم على أساس الأصالة وحرية المالك في التصرف بما تحت يده.. في حين إن النظرية الإلهية تقول بالتخويل والوكالة فصاحب المال ليس حرا فيما ملكّه الله (تعالى) وهو المالك الحقيقي وان صاحب المال مجرد مخول ووكيل وهذه الوكالة ليست مطلقة بل مخصوصة ومحددة بأوامر ونواهي الموكل المالك الحقيقي وهو الله سبحانه وتعالى وما يطلق من لفظ الملكية على البشر هو مجرد لفظ مجازي..

هذه الثقافة وان عرفها الجميع نظريا لكنها على صعيد التطبيق والعمل غائبة.. بل إن الغالبية العظمى من أصحاب المال يدافعون بكل قوة ويتمسكون بالثقافة القارونية والتي تقول (إنما أوتيته على علم) معتبرين تلك الأموال التي خولوا بالتصرف بها أموالهم التي جنوها بشقائهم أو شقاوتهم وذكاءهم واحتيالهم (لا يهم كثيرا لديهم) فكيف يعطون (من لو يشاء الله أطعمه)؟

(4)

((قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ورزقني منه رزقا حسنا وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح

ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب)) 88 – 89 هود

((وما أريد أن أخالفكم الى ما أنهاكم عنه)) ونفهم منه:

- ان من يتصدى للقدوة الصالحة والسير في مقدمة الركب يجب ان يلزم نفسه بما ألزم غيره به.. ولا تكفي الأوامر والتعليمات التي يصدرها من مسجده او قصره او مكتبه.. يجب ان تلمس القاعدة تطبيقا عمليا وواقعيا من قبل القمة بما أصدرته من قرارات وقوانين..

نلاحظ إن شعيب النبي لم يقل لقومه ما أريد أن أمركم بل قال ما أريد أن أخالفكم ولا تخفى دلالة ذلك.. لأنهم في سؤالهم له قالوا أصلاتك تأمرك أن نترك.... كان قومه دقيقين في طرحهم وان كانوا على باطل.. أرادوا أن يعرفوا مدى مصداقية شعيب (عليه السلام) في طرحه.. إذ لا عهد لهم بالصلاة التي تأمر بترك الهوى والرغبات.. فطمأن مخاوفهم بشكل قاطع لا لبس فيه أنه لا يريد مخالفتهم لما ينهاهم عنه..

إن التزام القدوة الصالحة هو التزام طوعي وأخلاقي وشرعي قبل ان يكون قانوني ووضعي..

ان كثير من الحركات التي رفعت لواء الدعوة قد فشلت فشلا مخزيا لأن من سار في المقدمة حاملا لواءها قد أثقلت خطواته أهواءه وعدم التزامه بشعاراته فتعثر مسير من مشى خلفه..

(5)

((إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب))

هناك عاملان في نجاح أي دعوة:

الأول - رئيسي وأساسي وهو توفيق الله تعالى ورعايته

الثاني: هو بذل أقصى الجهد وإخلاص النية وحشد الإمكانات من جهد ومادة....

وهذان العاملان مترابطان لدرجة يستحيل فصلها.. فالاعتماد على الجانب الغيبي والاتكال على توفيق الله دون إخلاص النية وبذل الجهد وتهيئة الأسباب المادية لا يحقق الهدف.. مثلما الاعتماد على الجهود الذاتية والإمكانات المادية دون التوكل عليه (سبحانه) لا يحقق الهدف المرجو وحتى إن تحقق فهو سراب خادع يحسبه الظمآن ماءا.

ويمكن تصور ذلك في الدعوات البشرية حتى تلك التي ترفع شعارات دينية ...

كذلك..

ان واقعية شعيب (عليه السلام) في قوله (ما استطعت) مطلوب أن نتذكرها وان لا نحمّل أنفسنا فوق ما تستطيع ولا نذهب أنفسنا حسرات على عدم تحقق الأهداف المرجوة وأن نفهم ان تكليفنا هو بذل أقصى جهد مع نية صادقة تسبقه وترافقه وتسير معه حتى اللمسة الأخيرة وترك تحقيق النتيجة للعليم الخبير..

(6)

((قال يا قوم أرهطي أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا إن ربي بما تعملون محيط)) 92 هود

في مجتمع لا يعرف غير المال والجاه الدنيوي المتمثل بالعشيرة مصدرا وحيدا للعزة والكرامة شعيب الذي لا يملك الثروة تصبح العشيرة ضمانته الوحيدة المتبقية التي تنقذه من عقوبة قومه الظالمة.. لم يهتم نبي الله لتهديدهم الأجوف ولم يلتفت لأستخفافهم به ومحاولة الحط من قدره.. مثلما لم يهتم لتزلفهم ومدحهم فهو يعرف ان أهواءهم

هي التي تحركهم وتتحكم بهم.. ولكن الذي آلمه هو قولهم (ولولا رهطك لرجمناك)

ويرد عليهم بغضب لله وحزن:

لقد أحزنه ذلك كثيرا.. ثقل عليه ان يكرم لغير الله تعالى.. ان يكون رهطه أعز عليهم من الله.. انه منطق من لم يعرف الله.. فما هو الرهط ما هي العشيرة او حتى الوطن او الأمة في جنب الله (عز وجل).. إن أولئك الذين يبدّلون قيم الله بقيم عبيده أولئك الذي يتمسكون بما أراده الله (عز وجل) ان يمحى.. أولئك الذين وضعوا أنسابا مقابل أنساب وضعها الحق (جل شأنه) الذين يقولون قولا مقابل قوله تعالى ((ان أكرمكم عند الله أتقاكم)) فيحيون نعرات قبلية او وطنية او قومية وأغلبها بعصبية جاهلية ويميتون مبدأ الولاء لله أولا وأخيرا ودوما.. وإذا أحيوه لم يكتفوا به.. فيرفعون معه شعار الولاء لله والوطن.. والأهواء أيضا..

لقد غضب شعيب على قومه الجهلة الكافرين لأنهم لم يكتفوا بجعل رهطه مقابل ربهم وخالقهم ورازقهم وبارئهم ومحييهم ومميتهم... بل انهم تمادوا في غيهم فجعلوه أعز عليهم من الله الذي جعلوه وراء أظهرهم كفرا وعنادا وجهلا وتجاهلا..ثم قال لهم نبيهم ((ان ربي بما تعملون محيط))

وكأنه يقول لهم إياكم والاغترار بحلم الله عليكم فهو السميع البصير... تعصونه ولستم خارجين عن قدرته...

هل أن الأستصال والاجتثاث الذي حدث لهذه الأمم الكافرة هو محض انتقام وعقوبة الهية أم له غايات أخرى..؟؟

ان تلك الأمم كانت أقوام مؤسسة للانحراف أرادت تعطيل القانون العام لسنن الوجود وإبداله بممارسات منحرفة.. أمم جاءت في فترات مفصلية من التاريخ الإنساني.. وجودها كان مؤسس لنظام الحياة.. وحجر الأساس الذي تبنى عليه حضارة الأنسان.. ومثلما يكون انحراف أساس البناء سببا في سقوط كامل المبنى مستقبلا فإن السماح

ببقاء واستمرار تلك الأقوام المنحرفة يعني عدم قيام حضارة مستقبلية للأجيال البشرية اللاحقة...

عليه فالاستئصال ضرورة لتثبيت الأسس الصحيحة للنظام العام وقواعد البناء القيمي للإنسان....فهو إذن ليس انتقام السماء من أقوام فاسدة ومنحرفة فحسب وانمّا هو ـ ايضا ـ تطهيرا للأرض من من قيم شاذة يصبح من المتعذر استمرار الحياة التي أرادها الباري (عز وجل) ان تقوم على هذه المعمورة ولو بحدها الأدنى..

بهذا يكون الإستئصال الرحمة الباطنة وظاهرها العذاب.. وهو الاستثناء وليس الأصل في علاقة الله الرحيم الودود والحليم الذي لا يعجل ولا يخاف الفوت مع عباده وعبيده..

في رحاب قصة نبي اللّه أيوب (عليه السلام)

بسم الله الرحمن الرحيم

((واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أني مسني الشيطان بنصب وعذاب*اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب*ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولي الألباب*وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب)) 41 – 44 ص

(1)

من لطيف صنع الله وعظيم حكمته أن تأتي الرسالات مكملة لبعضها وكل مرسل يحمل رسالة فيها مفاهيم وتعاليم وقيم تتناسب مع وعي الأمة التي يبعث فيها..

مع تطور البشرية وازدياد وعيها كانت الحاجة لزيادة جرعات الإيمان التي تقوي صلتها بربها العظيم.. كانت بحاجة لدروس عملية تجسد القيم الروحية التي جاءت بها الرسل..

وأيوب انبي الكريم كان له شرف تجسيد الدروس العملية (الشكر _ الصبر _ التوكل وتفويض الأمر لله (عزوجل))..

بدءا لابد من ملاحظة ما يلي:

- ان الدين لا يحارب الغنى المادي لذاته كما لا يمدح الفقر لذات الفقر..

بل ان الأمر يدور مدار النفس ومدى تأثرها وانعكاس ذلك الغنى والفقر سلبا وإيجابا على نفسية المتصف به.. فالغنى المحارب ذلك الغنى الذي يستغني به صاحبه عن ذكر الله (تعالى)... والفقر الذي

يستعاذ منه ذلك الفقر الذي يؤدي بصاحبه الى القنوط وإساءة الظن بالله واللجوء الى غيره سبحانه..

ان أولياء الله وان قدّر لبعضهم أن يعيش أجواء الغنى والثراء فإنهم يمتلكون من قوة التحكم بأنفسهم ولا يسمحون لذلك الغنى التسلل الى أرواحهم القدسية فيفسد لذة افتقارهم وانقطاعهم الى مولاهم الحق..

- ان قضية الشكر العملي للنعمة قضية هامة فالبعض يفهم من الشكر الذكر اللساني لجملة (شكرا لله) او ما شابهها... ان ذلك الشكر اللفظي مع مطلوبيته على كل حال لابد أن يلازمه شكر عملي والمتمثل باستخدام النعمة للغرض الذي أراده المنعم.. يبقى هذا الشكر القولي لقلقة لسان لا تعفي صاحبها من المسؤولية..

(2)
((أني مسني الشيطان بنصب وعذاب))

- ان دخول إبليس الى دنيا نبي الله يحتاج الى وقفة عميقة ذلك أن أولياء الله لا سلطان للشيطان عليهم وهذا الاستثناء استثناء إلهي بنص الآية الكريمة **((إن عبادي ليس لك عليهم سلطان))** 42 الحجر وهذا ما فهمه الشيطان وأقر به **((قال فبعزتك *لأغوينهم أجمعين إلا عبادك* منهم *المخلصين*))** 82 ص ونبي الله أيوب بكل تأكيد كان من عباد الله المخلصين المستثنين من تسلط الشيطان إذن كيف نفهم دخول اللعين الى عالم هذا النبي الكريم !

لا ندعي الإجابة الدقيقة ولكننا نثير في الأذهان أسئلة للتفكر والتأمل...ونحاول ان نحفز على قراءة واعية للتفسير..

هنا يمكن طرح نقطتين يمكن تساعدانا في تأمل تلك المسألة:

- إن ما حصل لنبي الله أيوب كان على سبيل الاستثناء وبالتالي ما تعرض له من تسلط إبليس كان امتحانا استثنائيا كان الغرض منه تعليم البشر لمفاهيم روحية وعبادية والارتقاء بمستوى العقائد ليها

والارتباط بالمولى (عز وجل) وإزالة مفهوم التطير من الابتلاء باعتباره غضب الهي بالنظر الى حال ولي من أولياء الله وتقوية الصلة بالله (عز وجل) وحصر التوكل عليه سبحانه بكونه الضار النافع..

- هي دروس تعليمية عملية ربما كان درسها اخلاقيا مفاده ان حجم طاقة الإنسان الكامل وطاقته الروحية عندما يتصل بالحق سبحانه لا حدود لها وهو يستمد تلك الطاقة من فيض توفيق الله ولطفه وان روح الإنسان ساحة محرمة على الشيطان إن جعلها ساحة لله تعالى.. والإنسان هو صاحب القرار في ذلك وهي حجة على من يتذرع بقهر الشيطان له...

(3)
((وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث))

في أحداث قصة نبي الله أيوب (عليه السلام) تظهر شخصية مقربة من نبي الله وفي المحيط الملتصق به وهي زوجته المخلصة الصابرة والتي وقفت معه في أشد ساعات محنته ولكنها لم تستطع أن تكمل طريق الصبر الذي سار به به نبي الله حتى خط نهايته، لقد خذلتها نفسها وانهارت قواها النفسية.

لم يخبرنا القرآن الكريم عن طبيعة المخالفة التي وقعت بها هذه المرأة الصالحة لكن الروايات التي لا نعلم مدى صحتها ودقتها تقول أن الزوجة قد استزلها الشيطان وخدعها ودخل الى أجواء نفسها فأفسد صبرها ولا تهم الكيفية التي تم بها الأمر ما يهمنا هو الدرس المستفاد من القصة.

لقد كانت بداية إنهيار معنويات الزوجة من تساؤلات صغيرة قد تبدو مشروعة ولكنها تشكل بداية خطر جدي على ثبات وصبر المبتلى.

ان حالة انهيار المعنويات أمام المصائب خصوصا طول المدة واستبطاء الفرج.. تبدأ بتساؤل قد يبدو صغيرا ولكنه مرور الوقت يشكل بؤرة خطر تتوسع شيئا فشيئا.. ليتحول التساؤل الخجول الى احتجاج معلن ثم الى مقارنة حال بحال قبل وبعد الابتلاء..ثم اعتبار الابتلاء بلاءا وعقوبة بنظر المبتلى لا يستحقه وأن غيره – الأكثر منه ذنوبا - أولى بما ابتلي به.. ثم يتحول الاحتجاج تذمرا فسخطا فيأسا من روح الله - والعياذ بالله - ليجد المبتلى نفسه في قلب دائرة الكفر..

لذا ينبغي ان يراقب المؤمن تلك التساؤلات الصغيرة التي نتسامح فيها والتي تشكل نافذة يدخل منها الشيطان الى دنيا صبرنا فيفسدها..

و أكثر الذين فشلوا في امتحان الفتن كانوا لا يراقبون تلك الخواطر الصغيرة الحائرة والتي في الغالب يلقيها الشيطان في النفس..

وإنصافا لأنفسنا المبتلاة بآفاتها وعوامل ضعفها وعزاءا لزوجة هذا النبي الكريم لابد ان نقول:

ان ما تعرضت له زوجة نبي الله أيوب من اختبار فشلت فيه.. قد نتعرض له جميعا كبشر غير معصومين نصبر ونحتاط كثيرا ولكن عند نقطة معينة تخدعنا الذات التي يتكلم الشيطان على لسانها.. وكم من نعمة منّ الله تعالى بها علينا ونسبناها الى غيره..

لقد انهارت الزوجة الصابرة في آخر اللحظات.. لم تكن زوجة سيدنا أيوب بغير الصالحة سوى امرأة استنفذت قواها واستسلمت لضعفها البشري في لحظة ما.. ليس أكثر من ذلك.. إنها امرأة صالحة ووفية وصادقة في حبها لزوجها بدليل العفو الإلهي عنها وعودتها الى كنف بيت النبوة..

(4)

((إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب))

كيف نتدبر الحكمة من الإبتلاء؟

إن مسألة ابتلاء الإنسان في هذه الدنيا:

تارة تتعلق بأصل هذه النشأة باعتبارها دار اختبار وامتحان.. الذي يعقبه إعلان النتيجة النهائية وليس من المنطق ان يكون هناك قاعة امتحانيه دون امتحان يقيم الممتحنين والاّ اعتبر وجودهم عبث..

و تارة اخرى يرتبط الأمر ببعد روحي.. فوجود الابتلاءات هي الجسر الموصل للارتقاء بالنفس وبلوغ درجات كمالها وسموها وبقدر درجة التفاعل الايجابي مع تلك البلايا والمحن يحصل الإنسان على درجة من الرقي..فطريق التكامل في الوجود يبدأ وينتهي بالابتلاء وهو يتناسب شدة وضعفا مع إيمان الإنسان ومدى تحملهم وطاقته الروحية وقابليته النفسية

وان قلة الابتلاء مؤشر على ضعف الإيمان وعدم القابلية الروحية وبالتالي هو لا يدل على كرامة أو ميزة الا اذا كان ابتلاء شكر نعمة كما حصل للنبي الكريم أيوب (عليه السلام)... ويمكن التفكر ببعض الفوائد الملموسة للابتلاءات حيث أنها:

- تشعرالإنسان حجمه الحقيقي ككائن ضعيف لا حول له ولا قوة لايملك لنفسه ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ولا سبيل أمامه سوى اللجوء الى حول الله وقوته مغيثه والقادر الوحيد على إعانته وتفريج همه.. وبالتالي فالابتلاء يقوي الصلة الروحية للعبد بربه..وينشأ علاقة مستمرة ومتجددة قوامها الاحتياج والتسليم والرضا...
- تفجر المحنة طاقة روحية لدى الإنسان كامنة تحت رماد الدعة والسكون والاطمئنان للدنيا.. فيتأرجح العبد المبتلى بين الرجاء والأمل والخوف والتضرع وانتظار الفرج والفرح بنصر الله وتوفيقه مما يخرج الانسان من روتين الحياة الثقيل ويعطي لها دفقا من الأمل بالغد ويكسبه المزيد من خبرة التعامل مع طرق الحياة الوعرة وهو

أمر يفتقده غير المبتلى والذي يعيش على هامش حياة لا يفقه منها غير لذة عابرة وسعادة مؤقتة..

- يشعر الإنسان بحقيقة الدار الدنيا وإنها دار امتحان وان الآخرة هي دار القرار وعليه فالتفكر بكثرة ابتلاءاتها تجعل من الإنسان (او يفترض كذلك) عبدا زاهدا بدار الفناء موطن نفسه على الرحيل عنها مفكرا في أمر آخرته دار مقره.

(5)
((اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب)) ص الآية 42

كان يمكن للرحمة ان تنزل بأمر كن فيكون بإذن القادر الحكيم.. ولكن جاءت بأمر يوجه لنبي الله (اركض برجلك) وفي ذلك دلالة لا تخفى على لبيب.... درس الهي في التأكيد على الايجابية والتفاعل مع الحدث وان كان بمستوى السعي لتلقي الرحمة.. وإن يصدر من العبد فعلا جوارحيا ولو كان رمزيا...

والسؤال.. ماهي العوامل التي ساعدت أيوب (عليه السلام) على اجتياز أعظم ابتلاءين في حياة البشر ابتلاء النعمة وابتلاء المحنة..وبذلك النجاح الباهر؟

ان صعوبة الابتلاء تأتي عندما يتمكن حب الدنيا من القلب ويكون الارتباط بعالم المادة شديدا.. وبقدر الإحساس باللذة المادية يكون الشعور بالألم أعمق.. بعكس ذلك لو كان ارتباط الأنسان بعالم المادة ضعيفا.. عندها يشعر بانتمائه الى عالم أرحب.. مع ملاحظة أن ذات الألم الجسدي قد يتحول عند الولي الى فيض من السعادة وهو يستشعر رضا المحبوب..

من هنا فإن أيوب النبي لم يتعلق لحظة بدار الفناء... فعندما كان يعيش في الرخاء لم يدع متع الدنيا تتسلل الى أجواء روحه التي كانت

حرما خالصا لمولاه الحق.. وحين سلبت منه وابتلي لم تتأثر تلك الروح الكبيرة وبقيت تحافظ على نقاءها.. وحين عاد حاله الى أفضل مما كان عليه.. كان فرحه برضا ربه ونجاحه بالاختبار هو الأكبر والأعظم.. ولو لم يفرّج عنه في الدنيا ومات بآلامه لما تغير من حاله شيء..

ودوما علينا تذكر ان أولياء الله لهم قوانينهم الخاصة في التعامل مع الحالات التي تطرأ على مشاعر: الغضب والرضا والألم والسعادة والفرح والحزن والخوف والطمأنينة.. ومعيارهم في ذلك هو رضا الله (عز وجل)...

في رحاب قصة نبي اللّه يعقوب (عليه السلام)

بسم الله الرحمن الرحيم

((قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ))
86 يوسف

اذا كانت العناوين الرئيسية للرسالات السابقة عقائدية وفكرية وروحية..

ففي رحاب قصة نبي الله يعقوب (عليه السلام) هناك محور رئيسي وهو المحور النفسي.

فالابتلاء الذي تعرض له هذا النبي الكريم كان نفسيا بالدرجة الأساس مع بقاء الثوابث الأخرى المشتركة في الرسالة،

يعقوب خاض تلك المعركة الاستثنائية.. من محيطه الملتصق به وتحديدا من أبناء لم يرتقوا بأنفسهم كما يجب وكما يحب.. وعانى من آلام نفسية قاسية بفراقه ليوسف.. فاعطى دروسا بالغة التأثير والقيمة للبشرية في الصبر والثبات والثقة بالله تعالى.

الصبر في قاموس الصالحين حالة معنوية تكتسب من خلالها النفس طاقة هائلة تستطيع بها مواجهة كل العقبات..

الصبر لدى أولياء الله ليس وضعا اضطراريا بل إختيار ويرونه منحة ربانية وليس محنة بشرية..

ان صبر يعقوب (عليه السلام) لم يكن صبرا على مصيبة فراق بقدر ماكان مرارة التعامل مع نفاق..

ففراق يوسف وان كان مؤثرا على نفس يعقوب الإنسان. ولكنه ليس هو السبب الوحيد لحزن نبي الله..

فهو صاحب رسالة شعارها التوحيد ومبدأها الولاء لله تعالى.. كيف يعقل لقلب نبي مرسل وعارف كامل أن يسكنه حب غير الله.. الا اذا

كان الحب يسير طوليا في حبه تعالى أو يقود اليه.. فالحب لا يتعلق بالشخص..

إذن ما هو المبعث الأساس لحزن يعقوب (عليه السلام)؟..

سؤال يدعو الى تأمل كبير..

لا شك أن الحزن على فراق يوسف الابن كان مؤثرا وكبيرا ولكن الحزن الأكبر كان على يوسف الولي.

هناك حزن آخر في قلب نبي الله حزنه على الأبناء وكيف مكنّوا الشيطان من النفاذ الى نفوسهم فأفسدها بأفكاره الخبيثة..

مؤلم وقاس ان يرى نبي الله محيطه العائلي وقد انحرف بهذا الشكل الخطير..وهو الذي بعث لمحاربة الانحرافات بكل أشكالها..

وما زاد في ألم يعقوب الأب والنبي هو إن جريمة أولاده كانت مستمرة فطيلة فترة غياب يوسف لم يتحرك ضمير إخوته ولم يراجعوا أنفسهم..

كان عليه أن يتعامل مع أولاده ما يقتضيه التعامل البشري بظاهر الحال.. ويقوم بكل التزاماته الأبوية تجاههم وهو يعلم بأنهم يخفون عنه حقيقة ما جرى ليوسف..و هو أمر نفسي بالغ الصعوبة..

ونفتح ملف الإسئلة الحائرة..

أسئلة تتعلق بالنبي يعقوب وأخرى تتعلق بأبنائه وأخرى تتعلق بالجريمة ذاتها...

ففيما يتعلق بيعقوب النبي والأب:

- هل كانت العلاقة الخاصة لنبي الله يعقوب مع يوسف توحى لأولاده الآخرين أنه يفضله عليهم ولو دون قصد؟
- هل لاحظ نبي الله يعقوب هذا توتر العلاقة بين أبناءه قبل أن يصل الأمر الى ما وصل اليه؟
- لماذا لم يبين الأب النبي حقيقة محبته لأخيهم؟

- عندما قص يوسف الرؤيا على أبيه حذره الأب من أن يعلم إخوته بذلك فيكيدوا له ومع ذلك فقد سمح لهم بأن يأخذوا يوسف معهم.. كيف نفهم ذلك؟
- لماذا ذكر نبي الله الذئب تحديدا كمصدر للخوف على يوسف ولم يذكر أسبابا أخرى وهي كثيرة..ثم.. لماذا قال (وأنتم غافلون) لماذا ذكر غفلتهم وكأنهم يلقنهم العذر..؟

أما الأسئلة المتعلقة بالأبناء فمنها:

- هل كان شعورهم بالغيرة من يوسف وأخيه مبررا.. كيف تولد الشعور بالغبن العاطفي لدى جميع الأخوة؟ ألا يمكن أن نلتمس العذر لأخوة يوسف في غيرتهم على أبيهم؟ بمعنى أدق..أليس من حق الأبناء أن يشعروا بعدم التمييز في عاطفة الأب؟
- لقد نسبوا الى أبيهم الضلال حين فضل يوسف وأخيه عليه وهم عصبة وهو تشنيع فضيع بنبي كريم.. فما الذي أرادوا قوله؟
- هل كان الأخوة فعلا لا يعلموا بمكانة يوسف الروحية عند أبيهم؟
- كيف نتعامل مع إخوة يوسف.. ماهي تركيبتهم النفسية هل نعتبرهم أشرار استفادوا من طيبة وتسامح النبيين الكريمين يعقوب ويوسف أم أناس طبيعيين تعرضوا لوضع نفسي خاص وأرادوا حقهم الطبيعي العاطفي من أبيهم ولكنهم أساءوا السبيل؟
- لماذا لم يدخل الحسد قلوبهم على حب بنيامين رغم انهم أشركوه مع يوسف في المكانة من قلب الاب لماذا لم يفكروا بإبعاده هو الآخر.. لماذا يوسف تحديدا؟
- نلاحظ ان الأخوة قد تدرجوا في وسائل التخلص من أخيهم يوسف.. فمن فكرة القتل الى فكرة التغييب أو الإبعاد.. فهل لذلك من دلالة.؟
- بعد فشلهم في تحقيق النتيجة التي توخوها..وهي خلو وجه أبيهم لهم الذي تحول عنهم بالكامل وفشلهم في تحقيق أي من أهدافهم

هل ندم الإخوة على فعلتهم؟ وهل كانوا سيقدمون على جريمتهم لو كانوا يعلمون بفشلهم؟...

- ما الذي منعهم من الاعتراف بخطيئتهم وتقديم الاعتذار وطلب المغفرة خصوصا وهم يعرفون مدى الرحمة في قلب أبيهم النبي؟
- هل كان ندمهم المتأخر على ما فعلوه بحق أخيهم حقيقيا صادقا أم تسليما بأمر واقع لا يملكون الا الإقرار به؟

بعد هذه الأسئلة.. سنذكر بعض النقاط التي تساعدنا في الإجابة:

(1)

العدالة الاجتماعية لدى أولياء الله هي منهج حياتي وسلوكي طبيعي وليس مفتعلا ولا انفعاليا..إن يعقوب النبي لم يكن يُفرق بين الإخوة وهو يتعامل معهم بكل ود رغم سوء طباع بعضهم..ولكن شأن يوسف لديه مختلف إنه ولي الله الذي سيكلف بحمل الرسالة القادمة.. انه أمانة إلهية مهمته الحفاظ عليها..ان حبه ليوسف حب وولاء لله وفي الله تعالى.. لم يكن حبا أبويا عاطفيا.. ان هذه المعاني العقائدية العميقة.. لم يكن ليؤذن له بالإفصاح عنها كونها من المشيئة الإلهية المستقبلية التي يجب التكتم عليها..ولإن أبناءه لم تكن لديهم الاستعدادات الذهنية لتقبلها والتعامل معها..هم لا يعرفون من يوسف الا أخ مميز عليهم..

(2)

إن تفكير الإخوة كان ساذجا وسطحيا فهم قد نسبوا الضلال لأبيهم النبي لأنه فضّل عليهم يوسف وأخيه وهم عصبة لقد تكلموا بمنطق المجتمع الذي يقدس القوة والجماعة ويعتبرهما معيارا وحيدا للاحترام.

(3)
كان نبي الله يتحسس العلاقة غير الودية بين يوسف وأخيه من جهة وبقية الأبناء من جهة أخرى ولكن الأبناء لم يكونوا يظهروا ما يبطنون تجاه يوسف وأخيه فلم يكن بوسع نبي الله بمحاسبتهم على مشاعرهم مالم تتخذ مظهرا خارجيا طبقا لقواعد العدالة..

(4)
عندما قص يوسف (عليه السلام)الرؤيا على أبيه تيقن الأب النبي من اجتباء واصطفاء يوسف لتحمل الرسالة الإلهية..وقد نصحه بكتمان الأمر عن أخوته على وجه الاحتياط..أما سماحه لهم باصطحاب أخيهم فمسألة تتعلق بعلم الولي الباطني المكلف بعدم إظهاره والسير وفق الظاهر وإن وقع فعلا كل ما يعلمه إجمالا أو تفصيلا..كما إن علم الأولياء بالغيب مما أطلعهم الله عليه وليس علما بالغيب القطعي النهائي والذي لا يعلمه سوى الله (عز وجل)..أضافه الى أن الأب وبحكم معرفته بأبنائه فإن رفضه لطلبهم سيعقد من الأمور وسيعمق الشعور لدى الأخوة بتفضيل يوسف عليهم..

(5)
لقد ذكر يعقوب (عليه السلام) الذئب تحديدا بالخوف على يوسف لأن وجود الذئب الخطرالأكثر احتمالا في الصحراء وفيه نقطتين غاية في اللطافة يذكرها أهل التفكر في كتاب الله فمن جهة أراد أن يُشعر الأخوة إنه لا يشك بهم وإنه يفترض فيهم حسن النية حين نسب الفتك للذئب بأخيهم..
وهو نوع من الحكمة التي تفترض حسن النية وتقلل من النوايا الإجرامية لدى الآخر.. وقد تنجح أحيانا في إيقاظ الفطرة فأكثر مايزيد في بشاعة الجريمة هو شعور المجرم ان المجتمع لا يثق به ويفترض فيه سوء النية مسبقا مما يولد في نفسه شعورا بالكراهية

الشديدة.. وسنرى أن ذلك قد نجح فعلا من تقليل نوازع الشر في نفوس الأبناء..
اللطيفة الأخرى في ذكر الذئب هي رمزية الذئب للمكر والغدر والفتك بغير شرف.. لقد كان يشير للأخوة ونفوسهم التي سولت لهم الكيد لأخيهم بلا ذنب ارتكبه معهم..

(6)

مسالة الشعور بالغبن العاطفي غالبا ما يتركز لا شعوريا في أذهان الأخوة لأب ويعمقه تميز الأبن الآخر في بعض الصفات الظاهرية كجمال الهيئة ولطف الشمائل او الذكاء والفطنة أو صفات باطنية ككرم النفس أو الشجاعة أو الصدق أوغيرها من الصفات الجاذبة للاهتمام وما يؤكد ذلك هو توجيه كل حسدهم ليوسف المتألق صورة وسريرة..
فشعور الأخوة بحد ذاته وإن كان ينطوي على سوء أدب مع نبي الله وولي أمرهم باعتباره اتهام مبطن بعدم العدالة. ولكنه كان من الممكن قبوله.. ولكن من غير المقبول والمعقول أن يتم التخطيط لهكذا جريمة بسبب شعور داخلي لاأساس له.. وحتى حجتهم بإبعاد يوسف ليخلو لهم وجه أبيهم فهي تدل على ضيق أفق خصوصا وهم لا يعلمون تحديدا ما كان يحبه أبيهم في يوسف..
فكان الأولى بهم أن يتقربوا الى أبيهم بما يحب.. لقد أحب يعقوب يوسف في الله وأحبوا هم يعقوب لأنفسهم.. بمعنى أن حب الأخوة لأبيهم كان حبا بشريا فيما كان حب يعقوب ليوسف (عليهما السلام) حبا إلهيا خالصا..

(7)

بعد أن استزلهم الشيطان وأطاعوا أنفسهم ونفذ الأخوة مخطط التخلص من أخيهم...رجعوا الى أنفسهم.. إحساس بتأنيب الضمير

حاد.. وشعور بعدم الانتماء للمجتمع الإيماني..واستشعار بالخروج من دائرة الرضا ولو بدرجات متفاوتة كما يذكر المؤرخون فليس كل الأخوة على نفس القدر من الجرأة على حرمات الله...

(8)

ان مسالة تدرجهم من الحد الأعلى في أسلوب تنفيذ الجريمة الى الأدنى يدل كما تفيد دراسات علم نفس الإجرام يدل على عدم تأصل الجريمة في نفس الجاني وقلة النزعة الإجرامية لديه بعكس المجرم الذي يكون تفكيره الاجرامي بصورة تصاعدية من الأدنى الى الأعلى..وهذه نقطة تحسب لصالح الأخوة الذين تدرجوا من القتل لأخيهم الى التعذيب والتغييب..

(9)

ما النتيجة التي حصل عليها أخوة يوسف من جريمتهم..؟

سؤال لطالما سألوه لبعضهم ولأنفسهم وبدءوا يتلاومون ويتهمون بعضهم بعضا..بالتأكيد أنهم ندموا ولكنه يبقى ندما سلبيا.. ندما على خيبتهم ولم يقدموا على أي خطوة ايجابية تترجم ندمهم الحقيقي..

فلم يعترفوا خوفا من الفضيحة ونظرة الناس لهم وهذا الإحساس دليل آخر على تيقظ ضمائرهم ولكنه إحساس يدينهم أكثر مما يفيدهم فيفترض بهم أن يراعوا ويفكروا بالحفاظ على سمعتهم كأولاد أنبياء قبل ذلك..ولو اعترفوا بالذنب وأعلنوا توبتهم وطلبوا من أبيهم أن يستغفر لهم لفعل ولخففوا عنه حزنه الأكبر وعن أنفسهم إحساسهم بالذنب..لكنهم لم يفعلوا فأحزنوا القلب المفجوع لأبيهم..فأصبح جرمهم تراكميا متجددا مع كل لحظة تمر عليهم وهم مصرّين على عدم توبتهم..

إن الاعتراف بالخطيئة شجاعة نفسية ممدوحة في ذاتها بغض النظر عما يترتب عليها من قبول أو عدمه.. وهو دليل على استيقاظ

الضمير بعد غفوته..لأن الاعتراف بالذنب يكسر حواجز نفسية يضخمها الشيطان ويعمقها في النفس بحيث يقنع صاحبها بعدم قبول التوبة لضخامة الجرم فيطيعه الإنسان الظالم لنفسه بسذاجة ليقعد محروما مخذولا وهو لا يدري أن بيأسه من رحمة الله التي وسعت كل شيء والتي لا يتعاظمها ذنب مهما عظم لا يدري أن بيأسه من روح الله قد ارتكب جرما أكبرمن جرمه بل وارتكب أعظم الجرائم وأشدها على الإطلاق..

وقفة هامة:

إن من شأن تحليل جريمة إخوة يوسف وهي بهذا الحجم وبتلك النوعية من التخطيط تحليلا جنائيا موضوعيا آخذا بنظر الاعتبار الجوانب النفسية والاجتماعية.. أن يفسر لنا الكثير من الجرائم الاجتماعية , الأسرية منها تحديدا.ان إخوة يوسف كانوا نماذج بشرية بسذاجة تفكيرهم.. وبكل انفعالاتهم وأحاسيسهم وحدّتها....علينا أن نفتش في دواخلنا عنهم وفي مجتمعنا..نساعدهم كي يعلموا من هو يوسف؟ ولماذا أحبه يعقوب النبي؟كي لا يقتل يوسف جديد وفي كل حين حسدا وحقدا عمدا أم جهلا..

يجب الا نسرف كثيرا في ذم أخوة يوسف فهم أبناء نبي مرسل وثبتت توبتهم وقبلها الباري (عز وجل) بشفاعة نبي كريم وسامحهم يوسف الصدّيق فلا يجب أن نتمادى في القسوة عليهم وأن نركز على الدروس العظيمة المستفادة من فعلهم البشري ولانزيد على قول أخيهم النبي ((لا تثريب عليكم...))

في رحاب قصة نبي اللّه يوسف (عليه السلام)

بسم الله الرحمن الرحيم

((لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ)) 7 يوسف

من البديهي التساؤل بعد أن تعددت صور الابتلاء...ما هو الابتلاء الرئيسي في قصة سيدنا يوسف (عليه السلام)؟

السؤال بمعنى آخر ما هو محور رسالة هذا النبي الكريم؟

إن جوهر ابتلاء يوسف النبي كانت في كشف خبايا النفس البشرية وخفاياها.. بين جمالها وقبحها بين طهرها ودنسها بين خيرها وشرّها بين براءتها وجنايتها بين وفاءها وخيانتها بين رقتها وشفافيتها وبين قسوتها وغلظتها..

في هذه الدائرة الخطرة.. في ساحة معركة لا يوجد فيها قانون للصراع ولا هدنة ولا أنصاف حلول.. من ينتصر فيها يحصل على كل شيء ومن يخسر يفقد كل شيء..

في معركة مصيرية شرسة كهذه كان ابتلاء يوسف الصديّق الذي جاء برسالة جوهرها توحيد الله (عز وجل) ومحاربة النفس الأمارة بالسوء والشيطان وإشاعة قيم الاستقامة والعفة التسامح والعفو عند المقدرة والتأكيد على الثقة بنصر الله تعالى..

(1)

((إِذْ قَالُوا *لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا* وَنَحْنُ عُصْبَةٌ.....))

نفهم من نص الآية المباركة ذكروا سببين لحسدهم:

الأول: سبب عاطفي محض وهو استئثار يوسف بحب ابيهم كما اعتقدوا فلم يحسدوه على مزايا شخصية متعلقة بشخصه حسدوه على حب أبيه له وهو أمر لا شأن ليوسف به.
الثاني: (وَنَحْنُ عُصْبَةٌ) لقد حددوا بأنفسهم معايير التفضيل في مجتمع يقدس القوة والمنعة والكثرة.
وقد يكون هذا المعيار صحيحا في كثير من الأحيان لكننا نقف عند مشكلة نفسية للحاسد دوما يرى الأشياء من منظاره القاصر وبحساباته الخاصة..

(2)
((*قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ*..))

حكمة التعامل مع النعم الالهية مسألة هامة لدوام التمتع بها، ولا تناقض بين اظهار النعمة شكرا للمنعم وبين مداراتها عن أعين الحاسدين، لابد أن نعرف وأن نميز بين محب نحدثه بما أنعم الله علينا وبين حاسد لا نستثير كوامن الشر والحسد في نفسه، أن تحذير يعقوب ليوسف لأنه علم ما في نفوس اخوته من مشاعر غير ودية لم يرد اثارتها..
وما يلفت هنا ان يعقوب يعلم ان اخوة يوسف سيفهمون تأويل رؤياه لوضوحها لهم ولأنهم أسباط تربوا في كنف نبي الله ولديهم قدر من العلم والفهم.

(3)
((فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ۖ))

الكيد نوعان كيد لك وكيد عليك، لقد كان يعقوب يعلم تماما أن الله بالغ أمره وأن كيد الأخوة سيكون ليوسف ولن يكون عليه، فكل خطوة

يقومون بها وأن كان هدفهم الكيد بيوسف ولكن بمشيئة الله ولطفه ستكون له وتقربه مما قدره الله له.

(4)

((قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي *غَيَابَةِ الْجُبِّ* يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ))

لنلاحظ تدرج عوامل الشر في نفس الأخوة بدلوا نيتهم من قتله الى القاءه في البئر ثم في بئر يكون على طريق السيّارة كي يلتقطوه وكأن يد الغيب تحركهم (وهي كذلك) لكن وقفتنا عند ما يدور بأنفس الأخوة إن هذا التدرج في فعل الشر من الأكثر اجراما الى الأقل ينبأ عن أنفس لم تحترف الشر أو تسعى في طريقه وهنا لا نقلل من شأن جريمتهم باخفاء أخيهم ولكننا نسلط الضوء على جانب مهم من أنفسهم ربما يفسر لنا فيما بعد طبيعة تعامل نبي الله معهم.

(5)

((*فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابت الجب* وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون))

إن المصاعب والمشاق التي تواجه أولياء الله تعالى على صعوبتها وقسوتها تمثل مرحلة إعداد نفسي وتهيئة روحية للولي وذخيرة إيمانية يستعين بها لقابل الأيام المليئة بالأحداث.. لذا كان البئر أولى الظلمات التي واجهها يوسف الصديق وقد أفادته تلك التجربة على مرارتها ووحشتها وهو ينتقل وبلا مقدمات من حضن أبيه الدافئ متنعما بفيض حنانه ورعايته الى قعر بئر موحش مظلم جسده غض ملقى أشبع ضربا مبرحا لكن روح يوسف هي من كانت تتألم أكثر وهو يرى إخوته أصبحوا أعدائه دون أن يرى مبررا لذلك..

(6)

((وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين))
يوسف: ٢٠

كم من نعمة الهية ساقها الله الينا ولم نقدّر شأنها ولم نحسن التعامل معها..
كم من عبد لله استخففنا بشأنه الذي لا يعلمه سوى الله،
كم من نعمة زهدنا بها وبعناها بدراهم معدودة وكنا فيها من الزاهدين !!
هو درس بالغ القيمة كي نتروى في حكمنا وتقييمنا لكل نعمة بين أيدينا أو يسوقها الله بكرمه الينا لا نستبدلها بدراهم معدودة فنكون من النادمين..
وصار يوسف عبدا في سوق النخاسة ولم يكن عبدا الا لله..
العبودية في قاموس أولياء الله تعالى هي في إطاعة الهوى والنفس الأمارة بالسوء وامتثال أمر الشيطان..العبودية والحرية تنطلقان وتعودان الى الروح أما الجسد وما يتعرض له من أسباب خارجية طارئة..فما هي الا ابتلاءات لتزكية النفس ودرجات سمو للروح التي تعيش حرة في عالم عبوديتها لله (عز وجل) وكلما أرتقت في درجات تلك العبودية المقدسة كلما حصلت على درجات أسمى وأعلى.. في الحسابات الأرضية المقلوبة أصبح يوسف (عبدا) في سوق النخاسة.. لكنها درجة في سلّم الاصطفاء الالهي..

(7)

((وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ *نَتَّخِذَهُ وَلَدًا*))

حين يريد الله شيئا يهيأ له الأسباب فيقذف محبة يوسف في قلب من اشتراه والسبب الظاهري (عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ *نَتَّخِذَهُ وَلَدًا*) مثلما رأينا في أمر فرعون مع موسى (عليه السلام)، وعبارة (أَكْرِمِي مَثْوَاهُ) إشارة خفية جاءت على لسان صاحبها (عزيز مصر) دون أن يقصدها ستكون مؤثرة في الأحداث.

(8)

((*وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا* لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ))

من اكثر العبارات التي أثارت أهل التفسير والتفكر هذه العبارة التي وردت في الآية المباركة ومنشأ الاشكال يرجع الى قضية عقائدية تتعلق بعصمة أنبياء الله فقالوا إن مجرد الهمّ لا يتصور حصوله من ولي من أولياء الله فكيف يهمّ بها يوسف وهو يتنافى مع عصمته؟

وبالتأكيد هذا الرأي صائب وصحيح ويتوافق مع منهج القرآن ولكن يبقى اشكال آخر يؤخذ على الرأي إن الهمّ مثبت غير منفي ولو أراد الله أن ينفي أصل الهمّ لفعل..

اذن لابد من قراءة أخرى متأنية للآية الكريمة قرأها أهل الفكر ممن وفقهم الله تعالى.. قالوا إن تكملة الآية تحل الاشكال.. فأصل الهمّ بها كان سيقع من يوسف لولا أن رأى برهان ربه ولكن كونه رأى برهان ربه فهمّه بها لم يقع أصلا..

لتقريب المعنى كأنك تقول لصديقك كنت سأتي للقائك لولا انشغالي بموعد آخر فاللقاء لم يتم أصلا لتزامنه مع موعد آخر.

ما الفرق بين الرأيين؟

الفارق كبير يتعلق بهدف الآية المباركة فلو نفينا الهمّ بها بداعي العصمة لغيبنا الجانب البشري بشخصية يوسف والهدف التربوي من القصة وهو مجاهدة النفس في شهوتها أو استسلامها تحت أي ظرف..

أما لو قلنا بأن الهمّ بها كان سيقع حال زوال المانع وهو الخوف من الله واستحضار مراقبته لتجلى لنا الهدف السامي من القصة كذلك.. ذكر عبارة (و همّ بها) فيها اشارة ليوسف الانسان بطبعه البشري الذي كان يحمل غريزة كغيره من الرجال فيكون امتناعه خوفا من الله واستحضار مراقبته لا لسبب آخر يتعلق بشخص يوسف.. (ويبقى هذا فهمنا البشري القاصر والمحدود المبني على الظاهر والله تعالى أعلم).

(9)

((كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ))

لقد صرف الله (جل جلاله) السوء والفحشاء عن يوسف ولم يصرف يوسف عن السوء والفحشاء وفي ذلك دلالة عميقة جدا.. ودليل قاطع على أن الهمّ بالفاحشة لم يقع من نبي الله فضلا عما سواه.

(10)

((قَالَ رَبِّ *السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ* مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ))

في خيارات أولياء الله لا وجود لأهواء نفسية بل الخيار الوحيد دوما ما كان فيه رضا الله (عز وجل) ويتساوى في ذلك القصر مع السجن وعبارة (*أَحَبُّ إِلَيَّ*) تفصح عن مدى الكراهة النفسية للفعل القبيح الذي جعله يحب السجن بكل ما فيه من مشاق وأذى نفسي وجسدي على أجواء القصر المدنسة..

ويدخل يوسف السجن..

السجن الذي أرسل اليه يوسف البريء ظلما كان الظلمة المادية الثانية بعد البئر.. ولكنه كان الانطلاقة الروحية الثانية في العروج الى عالم النور..
إن السجن في مصطلح أولياء الله (عز وجل) ليس بجدران وقضبان وشرطي وسجّان..إن السجن الحقيقي هو ظلمات النفس.. السجن الذي يصنعه الإنسان لنفسه من طاعته لشهواته وأهواءه الضالة..
من زنزانته وعلى قساوة ظروفه يعيش يوسف بداخله جنة خاصة.. مستغرقا في عبادة مولاه الحق.. وتنطلق فعليا دعوته الى الله تعالى..

(11)

_((*وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ*))

في لحظة خاطفة وفيما هو يودع رفيقه الذي خرج من السجن يقول له (أذكرني عند ربك) هي عبارة لطالما تتداول دون أن يتفكر بها.. لكن يوسف النبي سرعان ما يدرك حجم ما ارتكب.. ليأخذ منه الندم كل مأخذ.. درس عظيم.. في شدة المراقبة للنفس.. في حصر التوكل عليه سبحانه وحده.. في أن الله وحده هو مسبب الأسباب وبيده قلوب العباد..
ويدفع الصديّق ثمن ذلك بمكوثه في السجن بضع سنين..
السؤال:
كيف نسي رفيق السجن أمر يوسف وهل مثل أمر يوسف يُنسى؟ من الذي أنساه ثم بعد سنين يذكره؟ ! ماذا لو تذكر الذي خرج من السجن في حينها هل كان سير الأحداث سيجري كما جرى؟
ان سنين السجن الاضافية التي مكثها في السجن استغلها الصديّق في ترسيخ دعوته وكسب مزيد من المؤمنين بها وخلالها ايضا جاء

فرعون جديد يحكم مصر بدت عليه امارات الصلاح والعدل وتفهم قضية ظلم يوسف وملابسات سجنه،
وماكان ذلك ليتم لو لا نسيان رفيق يوسف لأمره، ومكوثه في السجن بضع سنين..
لندرك حقيقة من يحرك الأحداث كيفية وتوقيتا زمانا ومكانا ما حولنا وفي اعماق أنفسنا.. هو الله

(12)

((وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ.))

بواقعية ماذا تكون ردة فعل السجين ظلما لوصدر أمر بالعفو عنه.. ما هو شعوره؟ الى ماذا ينصرف تفكيره.. في خلاصه من السجن أم التفكير في الفترة التي قضاها ظلما؟ أم في الثأر ممن ظلمه؟ أم في رد اعتباره في المجتمع؟ إنها اللحظات التي تكشف عظمة النفوس.. وتفصح عن رفعتها وإباءها..
يوسف يرفض الخروج من ظلمات زنزانته حتى يعاد التحقيق في القضية التي أتهم فيها ظلما وبهتانا مع نسوة مصر ولم يذكر (امرأة العزيز) تحديدا في بادرة أخرى لعظم نفسه وترفعا عن النزول الى الثأر الشخصي وحفظا لمكانتها كصاحبة فضل في رعايته صغيرا قبل أن يحدث منها ماحدث..
لقد أراد نبي الله أن يخرج بريئا من السجن وليس مفرجا عنه بقرار ملكي..وهذه القضية الملفتة جعلت من الملك شديد الإعجاب بتلك الشخصية النادرة.. وبالفعل يعاد التحقيق العلني..عندها يستيقظ ضمير امرأة العزيز فتعترف بالحقيقة التي لم تخف على أحد ولتعلن براءة يوسف رسميا وعلى الملأ.. يوسف ذو النفس الكبيرة وبعد

يأمر الملك بسجن النسوة بمن فيهن زليخا يتنازل عن حقه الشخصي في موقف كريم..ليصبح درسا أخلاقيا عظيما من معلم عظيم..

(13)

((قال اجعلني على خزآئن الأرض إني حفيظ عليم*وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين)) يوسف 55-56

ا

لحكومة والمنصب الرسمي والوظيفي في منهج أولياء الله هي وسيلة لتحقيق غاية وليست غاية في حد ذاتها لذا نجدهم حين تتهيأ الظروف يتقدم الولي لقيادة الأمة وتبوء الموقع القيادي.. وهو يفعل ذلك من باب التكليف الشرعي..

ويوسف (عليه السلام) حين طلب أن يكون المسؤول عن خزائن الدولة قد وجد التكليف الشرعي منحصر به في ظروف صعبة وحرجة للغاية فهناك مجاعة قادمة تهلك البلاد وتفني العباد تعين عليه أن يقود دفة الأمور.. ويكون بذلك قد مهّد لرسالته..

هنا لابد أن نذكر واحدة من خدع الذات التي وقع فيه البعض.. حين ظنوا بأنفسهم خيرا وحين حصلوا على المنصب الدنيوي لم يفيدوا البلاد ولا العباد ولا أنفسهم الا في حصولهم على مزايا دنيوية زائلة.

(14)

((قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله لتأتنني به إلا أن يحاط بكم فلما آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل)) يوسف 66

بحسابات العقلاء فإن الخائن لا يؤتمن خصوصا إذا جرّب.. وتلك قاعدة صحيحة ومنسجمة مع العقل والنقل طبقا للحديث الشريف

((المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين)) فكيف وثق نبي الله يعقوب بأبنائه مرة أخرى؟..

(هنا نقف قليلا عند مبدأ افتراض حسن النية وعدم الحكم بالقياس على التجارب السابقة ومنح الآخر فرصة لإثبات حسن نيته كي لا يحتج بعدم إعطاءه الفرصة للتوبة وهو خلق إلهي جسدّه يعقوب (عليه السلام)..ببساطة كان يعقوب واثقا من المقسم به وليس بمن أقسم)

نبي الله يقبل من الأخوة قسمهم - ومجرد قبول قسمهم هو أمر يحسب لهم وأن نبي الله لم يفقد الثقة بهم تماما- ولكنه يأخذ منهم القسم بواقعية حيث ذكر ((إلا أن يحاط بكم)).. ففي هذه حالة (أن يحاط بهم) يكون الأمر قد خرج من استطاعتهم..قال بعض العارفين كأنه (عليه السلام) يلقنهم العذر..مثلما قال لهم في المرة الأولى حين أخذهم ليوسف ((أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون))...

ويصدق هاجسه ويحاط بهم فعلا.. ويعودوا لأبيهم يعتذرون من جديد ولكنهم صادقين هذه المرة..

(15)

((وقال يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وما أغني عنكم من الله من شيء إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون)) يوسف67

في لفتة يتجلى بها الهاجس البشري الأبوي يعقوب (عليه السلام) ينصح أولاده بأن لا يدخلوا من باب واحدة بل من أبواب متفرقة..

قيل خاف عليهم من الحسد لقد أراد أن يبعث لهم برسالة ودية.. هي كذلك نفوس الأولياء تفيض محبة وشفقة.. بالتأكيد كانت لفتة إنسانية رائعة تركت لدى الأبناء أثرا بالغا..وأعطت درسا لكل أب باغتنام أي مناسبة لإرسال هذه الرسائل الودية للأبناء مهما بلغوا من العمر..

لقد خاف عليهم بعاطفة الأب رغم يقينه إن ذلك لا يغني شيئا من نزول أمر الله تعالى.. ولكن حاجة في نفسه قضاها.. كثير من هواجسنا ومخاوفنا البشرية مع علمنا أنها لا تغني من أمر الله (عزوجل) شيئا.. الاّ إننا نمارسها غريزيا..لاشعوريا قد تحقق لنا راحة نفسية مؤقتة وتخفف كثيرا من قلقنا وخوفنا..
إن خوف يعقوب لم يكن يخالف يقينه وهو من سادة الموقنين.. بدليل وصيته لأبناءه للتوكل على الله (جل شأنه)..لكن لحاجة في نفسه قضاها كانت نصيحته... وبالتأكيد درسا بالغا لنا.

(16)
((*فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ*))

من الصور المشرقة التي رسمتها قصة نبي الله يوسف، هذا الموقف النفسي الذي يفيض نبلا..
درس عظيم وراقي في التعامل الانساني.. فهناك ما يسمى بالتغاضي في تجاوز الاخطاء حفظا للود وصونا لكرامة القريب وترفعا عن صغائر حرصا على الخواطر..

(17)
((قالوا أإنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخي قد من الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين*قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين))يوسف: ٩٠ ـ ٩٢

في موقف مؤثر للغاية تتجلى فيه عظم النفوس.. يقف الأخوة موقف ذل الاعتراف بالجريمة والتسليم بالهزيمة أمام إرادة السماء المنتصرة دوما..لقد جاءت اللحظة التي هربوا منها عشرات سنين

التقوا أخيرا بضحيتهم.. ولكن ليس أي لقاء.. فالضحية في الغالب تثير الشفقة وتأنيب الضمير..

لقد بدا يوسف ببهاء طلعته وجلال ملكه وهيبته..مدهشا وعظيما..بينما بدوا بحال يستحق الرثاء.. مقهورين بائسين.. عيونهم المنكسرة لا تستطيع النظر بوجه أخيهم.. هنا تلتقط كاميرا الزمن صورة من أبهى وأجمل وأروع صور النفس الكبيرة المتألقة..

لقد شق هوانهم عليه وآلمه انكسارهم وذلهم فيقول لهم بود ((لا تثريب عليكم اليوم....)) لا عتب عليكم اليوم ولا لوم.. أراد أن يخفف من وطأة شعورهم بالندم

.. إن تصرف يوسف مع أخوته بهذا النبل والتسامح هو الذي هيأ جو الاعتراف بالذنب من قبل إخوته..

مرة أخرى يكشف لنا الاعتراف المتأخر للأخوة وقبول يوسف بها دون تذكيرهم بما فعلوا عن عظم المزايا في نفس الصدّيق وكرم نفسه..

لقد تسامى يوسف النبي حتى على تذكير أخوته بذنبهم علاوة على التشفي والانتقام وإقامة الحد الشرعي وإن فعل فلن يكون ظالما..

هذا هو جانب من الجمال الروحي ليوسف الإنسان الذي انسجم مع جمال صورته..

(18)
((مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي))

بعد أن يجتمع الشمل يلقي يوسف خطابا مؤثرا فيه الكثير من الإشارات العرفانية وأدب النفس ولطف الأسلوب.. فبعد أن يذكر منن الله تعالى عليه وآلاءه ونعمه..يذكر إخراجه من السجن ولم يذكر محنة دخوله..ولم يذكر أمر الجب ومعاناة الرق التي عاشها..كي لا يحرج أخوته الذين أبدو ندمهم..

كذلك فإنه لم ينسب ماقاموا به إليهم بل نسبه الى الشيطان الذي نزغ بينه وبين أخوته..والأخوة يعلمون إن أنفسهم الأمّارة بالسوء هي من سمحت للشيطان بالدخول لإفساد علاقتهم بأخيهم..
وبتعريض لطيف ورائع يلفت نظر الجميع الى بعض ما أنعم الله عليه من ملك دنيوي شامخ وعطاء معنوي من تأويل الأحاديث في أشارة الى جزاء الصبر وانتصار الله تعالى للمظلوم..

كلمة لابد منها:

لقد تعرضت قصة هذا النبي الكريم لكثير من المتاجرة الرخيصة وأقحمت فيها تفصيلات وأحداث لم ترد في القرآن الكريم رغم إنها القصة الوحيدة التي نزلت بصورة كاملة ومفصلة وتوغلت الى عوالم الشخصيات الداخلية بأسلوب يستحيل وصفه..
رغم ذلك فلم تسلم من إضافات القصاصين الذين ذكروا أمورا كثيرة استقوها إما من أحاديث غير ثابتة السند وإما من كتب اليهود والنصارى خصوصا إنها قد ذكرت في الأنجيل والتوراة واللتين لا يمكن الاطمئنان اليهما لوقوع التحريف فيهما..
لقد شوه الأعلام الذي يجاري أذواق المشاهدين أكثر مما يرفع تفكيرهم وتفكرهم الكثير من الأحداث.. ورسم شخصيات وهمية في دورها في القصة وهمش أدوار لشخصيات أخرى.. وتم التركيز على بعض المشاهد من القصة بينما تم إغفال أحداث أخرى غاية في الأهمية بلا سند أو دليل معتبر..كل ذلك بداع خلق الإثارة والتشويق وربما.. التسويق.
إن التعامل مع القصة القرآنية إعلاميا مسألة خطيرة لابد أن يتعامل معها بحذر شديد وتحت اشراف ومتابعة ذوي الشأن والاختصاص لأنها ترتب مسؤولية شرعية وأخلاقية..وأكثر ما تتجلى تلك الخطورة.. انها تصنع الحدث في ذهن المتلقي كما يراها المخرج أو المعد..

بينما هدف القرآن الكريم هو التفكر والتأمل ورسم الأحداث في الذاكرة وفق المنهج القرآني.. فالغاية من إيراد القصة العبرة والاعتبار من أحداثها وليس البحث عن جماليتها فحسب.

في رحاب قصة نبي اللّه داود (عليه السلام)

بسم الله الرحمن الرحيم

((يا داوود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب)) 26ص

(1)

((فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله.......))

إن من معالم خلافة الله في الأرض العدل والحكم بالحق بين الناس وعدم اتباع الهوى الذي هو سبب كل ضلال فساد وإفساد في الأرض ولو لاحظنا فساد كل الحكومات البشرية ناشئ من عدم الحكم بالحق وإتباع الهوى..

بفرض توفرها لدى من يتصدى لمنصب القضاء إن لم يسندها تسديد إلهي وإلهام حكمة التعامل مع المواقف تبقى عاجزة عن ادراك الحق متخذة قراراتها وفق النظرة البشرية القاصرة.

(2)

((وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ))

إن وصف الباري (عز وجل) لداود بالعبد وهي أجل وأسمى مرتبة يصلها الولي وإنه أواب ينبآنا عن عظم شخصية هذا النبي الكريم وقدرته الفائقة في التوفيق بين المهام الرسالية ومباشرته مهام الحكم وقيادة الجيوش وبين الإنقطاع لله تعالى في العبادات المستحبة

واكتساب الدرجات المعنوية العالية تلك المعادلة الصعبة التي فشل في حلها الكثير ممن ظنوا بأنفسهم خيرا فلما فتنوا بمنصب صغر أو كبر فرطّوا في الكثير مما أفترضه الله عليهم فضلا عن اداء المستحبات..

(3)

((فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده فشربوا منه إلا قليلا منهم........)) البقرة249

إن هذا النهر الذي ابتلي به قوم طالوت بعد أن نصبه الله تعالى ملكا عليهم.. فيه رمزية لنهر الحياة وملذاتها و متعها كثيرا ما نبتلى بمثله ويحذرنا الله تعالى منه،
إن ما وقع لقوم طالوت أن اكثرهم شرب من النهر حتى شبع واسرف مما اثقل خطواته في جيش داوود، فتاثير اتباع الشهوات أنه يخلد الى الأرض.

(4)

((وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون))الأنبياء: ٨٠.

* التأكيد على الصنعة وشرف العمل اليدوي المنتج وتوظيف الأموال في الصناعات.. وتأسيس نظرية للعمل المنتج لرفع قيمة الإنسان.. فقد كان تعليم داود لصناعة الدروع التي تستخدم لحفظ الجسد في القتال فيه إشارة عميقة الى ضرورة الاهتمام بالأسباب

المادية التي تحقق النصر على العدو وإنشاء الصناعات العسكرية لهذا الغرض.

(5)

((وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب))

أن منصب القضاء منصب الهي وهو من أرفع وأخطر وأهم المناصب فالقاضي يقوم بمهمة تخويل إلهي حصري لصلاحية الحكم بين العباد..

وهو بهذا ليس منصبا دنيويا كباقي المناصب الخدمية ويجب الا يخضع لأختيارات بشرية مثلما القانون الذي الذي يقضي بموجبه يجب الا يكون بشريا..

ولمنصب القضاء قواعد وأصول والالتزام بمبادئ التقاضي وإدارة جلسات القضاء وعدالة القاضي من أهم ما يتطلبه هذه المنصب الخطير لقد فتن داود (عليه السلام) بخصمين اختصما فسمع من أحدهما وحكم لصالحه دون أن يسمع من الآخر فقد ظن داود (وهو لم يخطئ بظاهر الحال) اذ أن المسألة اتضحت لديه ولا تحتاج لإقرار الطرف الآخر..

فكان درسا عمليا في كيفية التقاضي وحرص المشرع الحكيم على تعليمنا المنهج العملي لتحقيق العدالة والحرص على المساواة بين الخصوم وتمكين كل طرف من يدلي بدلوه ويسوق حججه وأن لا نصادر حق الآخر بداعي وضوح الحجة عليه..

يعلمنا الحكم العدل من خلال درس داود في القضاء ضرورة الإستماع الى الطرف الآخر ومنحه فرصة الدفاع عن نفسه وأن يسوق حججه وان كانت واهية يدحضها واقع الحال..

(6)

((وظن داوود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب))

إن سرعة الإحساس بالافتتان وتشخيص مصدر الفتنة والخطأ الذي وقع فيه الإنسان أمر في غاية الأهمية وهو دليل على الحس العالي وعمق الارتباط بالحق (سبحانه وتعالى)

من هنا كان ظن داود (عليه السلام) في محله وهو ظن حسن بتشخيصه الدقيق والسريع لخطأه استحق ثناء الباري (عز وجل) أن المبادرة بالاعتذار عن الخطأ والاعتراف بالزلل من صفات أولياء الله وبقدر نقاء الفطرة وسلامتها يكون تحسسها للخطأ وسرعة انابتها.

في رحاب قصة نبي اللّه سليمان (عليه السلام)

بسم الله الرحمن الرحيم

((وورث سليمان داوود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا لهو الفضل المبين)) 15 النمل

(1)

((وداوود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين*ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما)) 78- 79 الأنبياء

تمهيدا لاعلانه خليفة للنبوة وفي حادثة هامة شغلت الناس وقتها تتجلى حكمة سليمان ويلهمه الله الحكم الصائب..

حيث انفلتت غنم أحدهم ليلا لترعى في حرث آخر فتفسده ويحصل نزاع ليحتكموا في النهاية الى نبيهم داود (عليه السلام) الذي يحكم لصاحب الحرث برقاب الغنم..

لكن سليمان كان له حكم مختلف عن حكم أبيه (بتسديد الهي)..

حيث يحكم بأن ينتفع صاحب الحرث بدرّ الغنم (حليبها) وصوفها ويقوم صاحب الغنم بإصلاح وزراعة الحرث كما كان فيردها الى صاحبها..

وبذلك يكون صاحب الحرث قد حصل على تعويض يناسب ما فاته من خسارة ويغرم صاحب الغنم بقدر ما أحدث من ضرر..ويدهش القوم لهذا الحكم العادل المثالي ويقرّوا بحكمته..

(2)

((ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب*قال رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب)) 34 – 35 ص

إن المملكة المترامية الأطراف التي كان يحكمها داود والتي خضع لسيطرتها ممالك ذاك الزمان الذي تمتع بازدهار نسبي..كان على سليمان إدارتها وقيادة جيوشها ونشر رسالته الإلهية..

لذا هو بحاجة للأنصار وتحديدا الأولاد لذا فقد تزوج العديد من النساء والجواري لهذا الغرض..

لقد ربط الأسباب بمسبباتها المادية ورغم أن ذلك يبدو طبيعيا وبديهيا لدينا الا أنه طبقا لقانون الأولياء يعتبر تركا للأولى وهو حسن التوكل وتفويض تمام الأمر لله تعالى..

ويشاء الله أن لا يرزق بعد أن طاف بجميع نساءه وجواريه الا بطفل غير مكتمل النمو ألقي على كرسيه،

وسرعان ما ينيب نبي الله لربه نادما ملتفتا الى الفتنة التي وقع فيها..

فليس له من الأمر شيء إن الأمر كله لله وما شاء الله كان ومالم يشأ لم يكن ولا علاقة للأسباب بل الأمر بيد مسبب الأسباب..

واللافت في الأمر أن سليمان شفع رجاء المغفرة بأن يهب له ملكا لا ينبغي لأحد من بعده..

فما دلالة ذلك؟

وما ارتباط هذا الطلب بالحادثة التي فتن بها؟ هذا ما يدعو للتفكر..

ان لأولياء الله مع مولاهم أحوال لا يمكننا لا نرتقي لفهمها.. أهمها هو عظيم معرفتهم به سبحانه وسعة كرمه وقدرته ويدهش سليمان من كرم وعظم العطاء الذي كان على قدر الواهب وفوق تصور الموهوب له.

(3)

((إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد* فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب *ردوها علي فطفق مسحا بالسوق والأعناق)) 30 – 33 ص

الجوانب الشخصية في حياة النبي وان لم يكن لها حضور في الرسالة لكن جزء من شخص المرسل كونه بشر في النهاية له اوقاته الخاصة كمحطات استراحة مشروعة وهناك أشياء محببة، في هذا الموقف الشخصي لنبي الله سليمان (عليه السلام) تعرض عليه الجياد (وكان محبا للخيل) قيل انه استعراض عسكري لخيل مهيأة لخوض المعارك الجهادية ورغم أن هذا من صميم عمله كقائد عام وليس أمرا ترفيهيا كما يصوره بعض المؤرخين الا أن هذا الاستعراض يطول لكثرة الخيول المعدّة بحيث تفوته بعض الواجبات العبادية.. وما ان يلتفت الى الشمس التي أشرفت على المغيب حتى ينتاب نبي الله ندم شديد ويتوب الى ربه وتقرب اليه بالتضحية بما شغل به وشرق المفسرون وغربوا في تفاسير غريبة للآية الكريمة لسنا بصدد ذكرها.

ما يهمنا هو الدرس المستخلص..

ترتيب الأولويات وجعل المواقيت الشرعية مواقيت مقدسة لا يجوز تأخيرها لأي سبب الا أن يكون قاهرا او حرجا ومحاربة النفس ومراقبتها في كل ما يشغل عن العبادة في اوقاتها، فإن حدث ذلك فيجب التضحية بذات الشيء الشاغل عن ذكر الحق سبحانه وتعالى.. وهذا دروس جهاد النفس وسير العارفين.

(4)

((حتى إذا أتوا على وادي النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون *فتبسم

ضاحكا من قولها وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين))النمل 18-19

في يوم آخر سليمان النبي والملك وهو في موكبه المهيب متقدما جيشه العظيم يمر بواد النمل فيسمع نملة ويبدوأنها القائد لمجاميع النمل تحذر صويحباتها من جيش سليمان (عليه السلام) أن لا يحطمنهم غير قصد.

يدهش نبي الله من التصرف الحكيم للنملة وحسن كلامها وفن قيادتها لرعيتها خصوصا قولها (وهم لا يشعرون) في موضوعيتها فهي لم تتهم موكب نبي الله بالتعمد بل من حيث لا يلتفتون الى وجود النمل لصغر حجمها فيحطمنهم بلا قصد.

ويبتسم نبي الله لهذا الموقف وكان ممكنا بل وطبيعيا أن يتجاوز نبي الله هذا الموقف ويكمل المسير سيما وهو في طريقه مع جيشه العظيم العدة والعدد للقيام بمهمة عسكرية،

ولكنه يترجل ويخر ساجدا لله تعالى يذكر بامتنان عظيم نعم الله تعالى ربما ذكّره حرص النملة على أبناء جنسها وخوفها عليهم والحكمة التي تعاملت بها،

بحجم الأمانة التي كلف بها وهو المسؤول عن حفظ رعاياه في مملكة مترامية الأطراف..

وربما شكرا لله على نعمة معرفته بلغة النمل وسائر الحيوانات وبالتالي اطلاعه على شؤون أصغر مخلوق في رعيته..

(5)

((وتفقد الطير فقال ما لي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين*لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان

مبين*فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبإ بنبإ يقين)) 20 النمل

الحدث الأبرز في حياة نبي الله سليمان ورسالته كان في تلك الساعة التي تفقد فيها الطير فلاحظ غياب الهدهد

(هنا من الضروري أن نقف لنتأمل كيف لملك له مملكة بحجم مملكة سليمان العظيمة وبحجم مسؤولياته أن يتفقد طير من الطيور في مملكته.. في حين أن في ممالك اليوم لا يتفقد الإنسان فضلا عن الحيوان..)

فتوعده بحزم القائد الحريص على شؤون رعيته بالذبح أو العذاب الشديد إن لم يأت بحجة تبرر غيابه.. إنها عدالة القوي الأمين..

وبعد حين يأتي الهدهد مع مبرر قوي جدا لغيابه.. فيقول لسليمان النبي أنه أحاط بما لم يحط به علما..وتلك المفردات تدل على شفافية العلاقة وتلقائيتها بين سليمان الملك وأفراد مملكته الذين يخدموه بكل إخلاص ومسؤولية..

وهذه العبارة (أحطت بما لم تحط به) فيها تأكيد على التخصص الذي ليس من العيب جهله ولا ينبغي تجاهله.

واستمع اليه سليمان (عليه السلام) بجدية واضحة لكنه ومع ترجيحه لصدقه لم يستبعد كذبه.. فكان الحوار الذي رسمه القران الكريم بأسلوب غاية في الروعة والجمال والبلاغة:

((قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين)) النمل 27

لذا قام نبي الله بتحرير كتاب ختمه بخاتمه وسلمه للهدهد الذي طار على عجل وألقاه على بلقيس ملكة سبأ وهي جالسة على عرشها..التي تعاملت مع الموقف بمنتهى الحكمة والشجاعة فلقد كانت امرأة عاقلة وملكة حكيمة عرفت فحوى الكتاب الذي أرسل اليها وان كلماته تغلغلت في أعماقها إجلالا وهيبة..

وعلى الفور دعت أركان دولتها والقادة لاجتماع طارئ وموسع وقرأت عليهم كتاب نبي الله سليمان والذي كان (من عبد الله سليمان بن داود الى بلقيس ملكة سبأ بسم الله الرحمن الرحيم.. السلام على من اتبع الهدى.. أما بعد فلا تعلوا عليّ وأتوني مسلمين)..

وتنقسم الآراء الى حمائم وصقور ولكن الغالبية رأت أن دولتهم تمتلك جيشا قويا له القدرة على المقاومة.. ولكنهم تركوا الخيار لها في نهاية الأمر فهي الملكة صاحبة القرار..

وناقشت الأمر معهم بكل واقعية واضعة كل الاحتمالات مبيّنة رأيها:

((قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون)) النمل 34

إن الحكمة التي تعاملت بها هذه المرأة يجب أن تكون دستور عمل ومنهج تفكير عند كل حاكم متغطرس لا يحسب حسابا لموازين القوى معتمدا على عنجهيته الفارغة وخطاباته المغرورة التي دمرت البلاد وأهلكت العباد..

فقررت إرسال هدية لسليمان (عليه السلام) فإن قبلها عرفت أنه ملك عادي فقاتلته وإن رفض الهدية عرفت أنه نبي وملك فتعاملت معه تعامل الملوك..

وبالفعل ترسل له هدية بالغت في قيمتها.. لكن وفد بلقيس يذهل من مظاهر الثراء والفخامة التي رآها في مملكة سليمان ورجعوا يخبرون ملكتهم بذلك التي صدق ظنها وتيقنت أنها أمام نبي كريم آتاه الله تعالى الملك..

لذا فإنها اتخذت قرارا جريئا وشجاعا بالذهاب بشخصها الى سليمان (عليه السلام)..في وفد كبير،

وقبل أن تصل اليه يأمر نبي الله كإظهار للقدرة والإعجاز أن يؤتى بعرشها اليه قبل وصولها..

وقيل أن عرشها كان داخل سبعة أبواب داخل قصرها الذي كان داخل سبعة قصور مغلقة الأبواب..لكن من يقوم بتلك المهمة المعجزة..
و من عظم امكانية سليمان لم يكن الامر يدور حول كيف يأتي بالعرش بل في مدة احضار العرش مابين ساعات ام دقائق ام ثواني ام اجزاءها والله على كل شي قدير.
يقول عفريت من الجن أنا آتيك بعرشها قبل أن تقوم من مجلس القضاء وكان سليمان يجلس للقضاء من الضحى حتى منتصف النهار..
و يتقدم الذي عنده علم من الكتاب ويحضر عرش بلقيس قبل أن يرتد طرف سليمان اليه وكان ناظرا حينها الى السماء، فلما رأى العرش أمامه خر ساجدا لله تعالى شاكرا ممتنا لفضله العظيم.

(6)
((وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين))

من أهم موانع تقبل العقيدة الجديدة هو وجود عقيدة سابقة مترسخة في قلب الانسان الذي لا يتسع لعقيدتين متناقضتين لذا كان العائق من دخول ملكة سبأ عقيدة الإسلام وما كان عليه دين سليمان (عليه السلام) هو عقيدتها السابقة ورغم رجاحة عقلها وفطنتها والحكمة التي كانت تتمتع بها الا إن كل ذلك لم يكن كافيا لإسلامها. ولكنها اقتربت كثيرا وهي ترى المعجزات المبهرة التي تتوالى.

(7)
((قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها قال إنه صرح ممرد من قوارير قالت رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين)) النمل 44

قيل كان الصرح عبارة عن زجاج أبيض شفاف تحته ماء عذب يجري فيه سمك وكان سليمان (عليه السلام) يجلس على صدر الصرح فرفعت أطراف ثيابها وتهيأت للعبور وقد حسبته ماءا وإذا نبي الله يخبرها بأنه صرح ممرد لتدرك أنها أمام قدرات تخرج عن نطاق قدرة البشر.. وتعلن اسلامها عن يقين.

لكن السؤال هو لماذا أسلمت حين رأت الصرح الممرد في حين معجزة إحضار العرش كانت أبلغ حجة وأكثر عجبا؟

هنا يمكن تصور احتمالين قد يصح أحدهما أو كلاهما:

الأول: أنها وبفعل ازدهار مملكتها ومعرفتها بفنون العمران والموضات السائدة في ذلك العصر حين رأت الصرح الممرد أيقنت أنها أمام ظاهرة غير بشرية ظاهرة استثنائية خارقة لما هو سائد أو متخيل..لذا كان تسليمها كتسليم السحرة أمام عصا موسى (عليه السلام)..

الثاني: ربما كان إسلامها لم يكن وليد لحظة رؤيتها للصرح الممرد ربما ابتدأ من لحظة ورود كتاب سليمان اليها..وهو أمر غالبا مايحصل عند أصحاب العقول الذين لا يحكمون عواطفهم وانفعالاتهم في قراراتهم المصيرية..

(8)

((فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين))سبأ 14

لقد وهب الله سبحانه وتعالى لعبده سليمان (عليه السلام) ملكا لا ينبغي لأحد من بعده وسخّر له الريح والإنس والجان والطير والوحش وعلمه منطق الطير وأتاه من كل شيء..

كان ملكه نموذجا لعطاء الله غير المحدود وخوله التصرف فيه بصلاحيات مطلقة.. ومثلما كان العطاء الكريم كان سليمان على قدر المسؤولية والابتلاء.. لكن بعض النفوس المنبهرة بالمظاهر وبالدنيا وزخرفها ربما تفتن بسليمان وملكه.. ربما تنبهر بسليمان الملك والإنسان وتترك سليمان العبد الصالح والنبي فيفتن البعض بتلك السيرة المليئة بالأشياء الخارقة للعادة..

ربما لهذا وحكمة أخرى أرادها الله تعالى للدلالة على ضعف الإنسان ولو كان مثل سليمان وملكه يبقى في النهاية عبد لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا..

ففي أحد الأيام وفي لحظات اقتنصها من زمن حراكه الذي لا يهدأ.. من حروب وإدارة وفصل بين العباد ومهامه كنبي وحاكم لكل المخلوقات..أراد لتلك اللحظات أن تكون لحظات تأمل لملكه العظيم ويأمر بأن لا يدخل عليه أحد..ويبدو أن جميع من في القصر من أهل بيته والخدم قد تعودوا على خلوته وانقطاعه للعبادة فلم يدخل عليه لمدة طويلة..

هذه المرة يتأخر نبي الله كثيرا..الجميع ينتظر.. ينظر المنتظرون بدهشة اليه وهو على شرفة القصر متكأ على عصاه دون أن يجروء احد على السؤال هيبة أواحتراما لنبي الله الذي لم يتحرك من مكانة بل ولم يغير مكان أو طريقة وقفته..

فيقبض نبي الله وهو متكأ على عصاه لم يمهله ضيفه الكريم حتى تغيير مكانه.. يقال أنه قبض في اليوم الذي أحس به بانشراح في صدره فأراد أن يصفو له بلا منغص..

ليترك لنا حكمة ورسالة تقول..

إن اليوم الذي تظن أن يصفو لك فيه العيش في هذه الدنيا لم يخلق بعد.. ولو كنت سليمان الذي أوتي من الملك مالم يؤت أحد من العالمين..

طال انتظار المنتظرين وزادت حيرة المتحيرين في أمر سليمان النبي والملك.. ولم تكشف السر سوى دابة من أصغر دواب الأرض..
حشرة صغيرة لم يأبه بها الجميع يوما.. أخذت تنخر العصا التي كان يتوكأ عليها أعظم ملوك الأرض ليخر الجسد الذي فارقته الروح..لتدرك الجن والشياطين التي تزعم بعلمها بالغيب أنها كانت تلبث في العذاب المهين سجينة بلا سجّان..

أهم الدروس التي نستخلصها من أحداث قصة نبي الله سليمان(عليه السلام):

- مسألة التحكم بالعوالم السفلية والعلوية وتحديدا تسخيرها للإنسان مسألة أضلت الكثير من الناس بتنوع ثقافاتهم وتفكيرهم المفتقدين لعقيدة راسخة فهناك الكثير من المفاهيم الخاطئة والساذجة في التعامل مع عالم الغيب..
- من المسائل المثيرة لفكر الانسان عالم الشياطين والجان.. فالإنسان دائم البحث عنها.. مطلقا لنفسه العنان في تخيلها وتصويرها كقوى خرافية متحكمة جاعلا من نفسه الطرف الأضعف في المعادلة..استولى هذا التفكير الخاطئ على الفكر البشري السطحي وتجذّرت مفاهيمه في العقل الباطن للمجتمع بحيث أصبح يشكل ثقافة شعبية..
- ورغم التطور المادي الكبير الذي وصل اليه الإنسان بقيت أفكاره وتحديدا في مسألة التعامل مع الغيب والتعرف على العوالم الأخري تراوح مكانها.. فلازال الشيطان هذا المخلوق الخرافي الذي لا يستطيع أحد مواجهته يتحكم في ماضي الإنسان وحاضره ومستقبله.. وبقيت الجان تلك المخلوقات العجيبة التي تمتلك من الطاقات الخرافية ما يجعل الإنسان مندهشا مذهولا وأحيانا خائفا

مذعورا منها وحيكت الأساطير والحكايات الخرافية حول علاقة البشر بتلك العوالم..

حتى بات الإنسان يجهد نفسه برياضات روحية ونفسية لغرض مشاهدة الجن وخرق الحجب التي تمنع ذلك بل عدّ ذلك من الكرامات والقداسة أحيانا.. وكل ذلك ناشئ من عدم معرفة الإنسان بنفسه وبالتالي عدم معرفته بما يمتلكه من طاقات وما يمثل من حجم ومقدار تكريم الباري (عزوجل) له.. وتفضيله إياه على جميع خلقه بل وتسخير كل ما خلق لخدمته شرط أن يكون أهلا لذلك التشريف..

الإنسان سيد المخلوقات وأفضلها بل لأجله سُخّرت لكن حدود تلك السيادة وذلك التسخير يتأثر قوة أوضعفا بدرجة طاعة الإنسان لخالقه وعبوديته لمولاه مالك الملك وأن سلطة الأنسان هي سلطة تفويض من الله تعالى وبمدد منه وليست سلطة مطلقة أو أصلية أو ثابتة.

- ان مسالة تسخير العوالم للإنسان الكامل خليفة الله في الأرض مسألة تلقائية وطبيعية لكن إظهارها الى عالم الإمكان يضفي عليها هالة من الغرابة في عالم الحس والمشاهدة عند عامة الناس لا يستوعبوا حصولها بفعل تخبطهم بظلمات الحجب التي تكونت من خطاياهم وخطأهم وغفلتهم..
- أن الملك لله تعالى وحده يؤتيه من يشاء وكيف يشاء ومتى شاء بلا حدود لعطاءه.. لكن هذا العطاء غير المحدود يستلزم محلا مناسبا لتجليه وهي النفس التي يفترض أن تكون مظهرا من مظاهر الحق سبحانه وهي نفس المعصوم الذي يجسد الإنسان الكامل.
- أن شكر النعمة يكون من جنس النعمة التي أنعم بها المنعم وقام سليمان بتجسيد عدة مظاهر لهذا الشكر العملي. فقد ملك دنيا لم تملكه.. وتصرف بأسبابها ولم تصرفه عن عبادة ربه الأعلى وانقاد له كل شيء ولم ينصرف قلبه الى أي شيء من حطامها.

- إن الشياطين والجن والملائكة هي مخلوقات كسائر ما خلق الله تعالى خلقها لحكمة وغاية ولا تخرج بأي حال من الأحوال عن قدرته ومشيئته فلا ضرر لها ولا نفع لها الا بإذنه سبحانه...
- سليمان (عليه السلام) لم تشغله مسؤولياته كنبي وقائد وحاكم من الاهتمام بشؤون رعيته إبتداءا من أصغر المخلوقات كالنملة والهدهد وانتهاءا بالإنسان.. وفي ذلك درس لكل من ولاه الله تعالى ملكا فنسي رعيته متذرعا بكثرة المسؤوليات..
- مسألة التوفيق بين إدارة الحكم والملك العظيم وما يتطلبه من فنون السياسة ونظمها الإدارية وقيادة دفتها وبين المقامات الروحانية العالية التي حصل عليها هذا النبي العظيم.مسألة غاية في الصعوبة والمشقة.
- عبادة غير الله تعالى أي كان هذا الغير صنما أو وثنا.. نفسا أو إنسانا أو شهوة..هي حجابا تصد عن إتباع الحق وساترا للحقيقة مثلما صد بلقيس ما كانت تعبد من دون الله تعالى.
- لم يفنَ ملك سليمان ولكن سليمان هو الذي غادره في لحظات.. لم يمهله الأجل حتى تغيير مكانه فقبض وهو متكأ على عصاه في اللحظة التي كان يتأمل ملكه العظيم ليبعث لنا برسالة تلخص فلسفة الوجود:

أن الدنيا إن لم تفارقها فارقتك فهي ليست قدرنا وهي محطة وإن كانت مثل ملك سليمان.. سليمان الذي لم يكن بها غير عابر سبيل اجتازها الى دار البقاء.. والخلود

في رحاب قصة نبي اللّه يونس (عليه السلام)

بسم الله الرحمن الرحيم

((وإن يونس لمن المرسلين*إذ أبق إلى الفلك المشحون*فساهم فكان من المدحضين* فالتقمه الحوت وهو مليم* فلولا أنه كان من المسبحين* للبث في بطنه إلى يوم يبعثون)) 139- 144 الصافات حففننت222واتالانا

1- لم تكن مغاضبة يونس (عليه السلام) مغاضبة لنفسه تحركها دوافع شخصية بل مغاضبة خالصة لله تعالى وحرصا على الرسالة.

2- لقد تدارك يونس (عليه السلام) تركه الأولى بتوبة وإنابة هي الأعظم في تاريخ الإنسان مميزة للغاية بدأها بتوحيد وضمنّها تسبيح وختمها بإقرار بالذنب.. فكانت توبة يونسية استثنائية اهمت التائبين والمستغفرين والمنيبين الى الله (جل شأنه)..

(1)

((فساهم فكان من المدحضين))

حين خرجت القرعة على يونس لم يكن حينها أحب الى الله من الخلق من يونس فهو عبده الصالح ورسوله، لكن هو درس اخلاقي عظيم في فلسفة الابتلاء فقد يبتليك ربك وانت أحب الى الله من سواك..الابتلاء ليس دليل سخط وغضب..

(2)

((وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين)) 87 الأنبياء

لقد ابتدأ التسبيح اليونسي بتوحيد الباري من كل شرك وتنزيهه مما لا يليق به (سبحانه) ثم أقر بذنبه وتقصيره..
ليعلمنا درسا بليغا في أدب الدعاء والوسيلة لطلب التوبة ومقدماتها..

(3)

((فاستجبنا له ونجيناه من الغم...)) الأنبياء 88

لم يقتصر الكرم الألهي العظيم على يونس النبي بل أسس لقاعدة في الرحمة الألهية لكل من ظلم نفسه وأوقعها بغم المعصية والبعد عن الله تعالى ولو كان بمقدار ترك الأولى..

لقد كان تسبيح يونس طوق نجاة له ولكل مؤمن موحد..

((...وكذلك ننجي المؤمنين)) الأنبياء 88..

.. إن الغم الذي كان يجثم على قلب يونس (عليه السلام) لا يمكننا تصوره وهو غم الأولياء الصالحين الذين اعتادوا العيش متنعمين بفيض النور الإلهي الذي تسبح في فضاءاته أرواحهم الطاهرة..

(4)

((فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لمآ آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين))
يونس 98

ويبقى كرم الله في الاستثناء

..ففي الوقت الذي استثنى فيه الباري (عز وجل) القرية الظالمة من قانون الاجتثاث بشرط توبتهم ورجوعهم **((إلا قوم يونس لمآ آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا))**، واستثني يونس النبي والعبد الصالح من قانون العقاب بشرط توبته وإنابته واستغفاره **((فلولا أنه كان من المسبحين* للبث في بطنه إلى يوم يبعثون))..**
لأنه الله ذو الفضل العظيم

في رحاب قصة نبي اللّه عيسى وأمه الصديّقة مريم (عليهما السلام)

بسم الله الرحمن الرحيم

((إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون))59 آل عمران

(1)

((إذ قالت امرأة عمران رب إني *نذرت* لك *ما في بطني* محررا فتقبل مني إنك أنت السميع العليم)) 35 آل عمران

النذر الذي ينذره المؤمن فضلا عن توفر شروطه الأساسية أولها أن يكون لله والنية الخالصة ومشروعية النذر في كثير من الأحيان يعبر النذر عن شخصية الناذر وعمق إيمانه وعقيدته.. فأم مريم نذرت ما في بطنها ليكون خادما للبيت متفرغا للعبادة لتنتزع أية رغبة شخصية بالمولود..

لقد كان نذرها على قدر إيمانها واخلاصها وحبها لخدمة عقيدتها..

(2)

((فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإني سميتها مريم وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم)) 36 آل عمران

((وليس الذكر كالأنثى))

كانت أم مريم واقعية في ذكر هواجسها ولم يكن الأمر تقليلا من شأن المرأة أو تفضيلها ولكن بلحاظ المهمة التي ابتغتها وهي خدمة البيت فقد رأت بمنظور شخصي صعوبة مهمة البنت في مجتمع لم يألف

وجود النساء في محل العبادة فضلا عن التفرغ للخدمة في البيت المقدس والمبيت فيه.. يكون الأمر صعبا جدا..

((وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم))
أصل "المعاذ" الموئل والملجأ والمعقل لقد حصنتها بحصن الله المنيع الذي لا يدخله شيطان ومن جديد تكشف لنا هذه الاستعاذة عن عظم ايمان أم مريم وعمق ارتباطها بالله وثقتها به سبحانه فكانت الاستجابة الكريمة **((فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا))** وكانت مريم مطهرة وابنها من كل رجس.

(3)
((كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب))
37 آل عمران

كان زكريا (عليه السلام) يعيش مشكلة شخصية حيث لم يرزق بذرية والذرية عند أولياء الله لا تعني ما تعنيه عند عامة الناس فهي مرتبطة بحمل رسالة وارث نبوة ومريم كانت تعرف ذلك وحين سألها عن الرزق الذي كان يأتيها قالت (هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) أحس زكريا أن جواب مريم يعنيه هو وأنه قد فهم رسالة كريمة موجهة اليه وأن الرب الرحيم قد أذن لحلمه أن يتحقق فيدعو بقلب يملؤه الرجاء وبتلك اللحظة تحديدا.
(ان انتهاز لحظة الدعاء هامة جدا في الاجابة فهناك اشارات الهية خاصة يحسها الانسان بأعماقه وتتفاعل معه روحه وتخشع جوارحه ويرى نفسه قريب جدا من ربه هذه اللحظات هي لحظات استجابة بإذن الله).

(4)

((ذكر رحمة ربك عبده زكريا*إذ نادى ربه نداء خفيا*قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا*وإني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقرا فهب لي من لدنك وليا*يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا*يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا *قال رب أنى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا*قال كذلك قال ربك هو علي هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا))2- 9 مريم

على هدى الآيات المباركة قد تتبادر الى الذهن مجموعة الأسئلة:

- كيف يكون دعاء زكريا بصيغة النداء وهو الصوت العالي وفي نفس الوقت يوصف بالخفي؟
- ما الذي كان يقصده نبي الله من الشقاء ((ولم أكن بدعائك رب شقيا)) بدعاء الله وماعلاقة ذلك بالشيب ووهن العظم؟
- قوله (يرثني) ماهو الميراث الذي حرص زكريا على توريثه للوليد المنتظر؟
- حين بشر زكريا بالغلام الذي كان الغرض من دعائه..ماوجه تساؤله عن الكيفية؟
- ماهو وجه الأعجاز في آية زكريا الدالة على البشارة؟
- لماذا أوحى زكريا لقومه بالتسبيح صباحا ومساءا؟

قبل ذلك..

نفتح لنا نافذة نطل من خلالها على عالم كبير..اسمه الدعاء وهو (احتياج.. إلتجاء..تضرع..إحساس بإن هناك كهف تأوي اليه حين يتخلى عنك الجميع..شعور دافئ تحتمي به من برد ظلمك لنفسك أو ظلم الغير لك)..

و إذا كان لكل شيء قمة أو ذروة يصلها..فحين يصل الإنسان الى قمة شعوره بالعجز ويسقط في يده ويدرك حجمه الحقيقي وإن هناك رب رحيم كريم قوي عزيز غني قادر لطيف لما يشاء..عندما يصل الإنسان لتلك اللحظة ويستحضر آدميته المنكسرة المقرة المذعنة قاطعا كل علائقه البشرية.. يأتي الفرج من حيث لا يحتسب ولا يتوقع..

نعود لوقفات التأمل فيما ذكر من أجوبة المسائل المتقدمة:

1. إن النداء وإن كان يرتبط بالصوت العالي وهو يتناقض ظاهرا مع كونه ((خفيا)) بمعنى الإخفات الا انه يمكن تصور ذلك والجمع بينها وهو يحدث كثيرا بل ويستحب كأدب من آداب الدعاء أن يرفع الصوت في مكان بعيد عن الناس إما مكانا أو زمانا..فهو نداء لا يسمعه الناس كأن يكون في مكان خالي أو وقت السحر حيث لا يسمع أحد.
2. إن زكريا وبأدب العبد مع ربه يعترف بعظيم نعمة الله تعالى عليه أن ألهمه الدعاء طيلة عمره وأنه لم يكن يوما شقيا بهذا الدعاء فلم يعرف من ربه الا الحسنى وأن ذات الدعاء هو نعمة متجددة من الباري عز وجل على عبده ويأتي من ضمن التذلل وعرض الحال على من هو أعلم به كذكر الشيب وعوامل العجز.. وهناك أمر آخر كأن نبي الله أراد أن يقول أن دعاءه كان دعاءا مشروعا لأن هناك ممن يدعوا ربه دعاء بطر فيشقى ونكرر هي دروس متقنة موجهة لنا..
3. لقد ذكر زكريا سببا لطلبه أو دعاءه فلم يكن سببا دنيويا كزينة الحياة الدنيا بل ذكر أسباب وجيهة وعقلانية لطلب الولد كي يرثه أرثا ماديا كون زوجته من سلالة يوسف وقد ورثت مالا خشي أن يقع بيد الأشرار أو أرثا معنويا كونه نبيا ويتمنى أن تتصل حلقات الدعوة الى الله في هذا البيت المبارك..

4. حين جاته بشرى بإجابة الدعوة فإن زكريا تساءل عن الكيفية بلحاظ عدم وجود الأسباب الطبيعية للولادة وهي رسالة موجهة لنا للدلالة على قدرة الله تعالى المطلقة وقد تكررت تلك المواقف التعليمية..

5. لقد كانت آية زكريا عظيمة ومعجزة كبيرة.. فهو ومع إمكانيته على الكلام ومع سلامة كل قواه التي تساعد في النطق يعجز عن ذلك..نستطيع أن نتأمل في ذلك.. فنسأل هل لتلك الآية المتعلقة بالنطق لها ارتباط بأصل المسألة وهو الدعاء وهو أيضا متعلق بالنداء الخفي.. الله تعالى أعلم.

(5)

((وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين*يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين)) 42- 43 آل عمران

في لحظة انقطاع وتبتل مريم تتلقى أولى بشائر الإجتباء الألهي بفرح يجتاح كل وجودها وكانت تلك البشائر تمهد للحدث العظيم.
ففي لحظات إلهية بالغة العظمة تفاجأ مريم العذراء المقدسة العابدة بوجود رجل في مكان تعبدها.. مفاجأة اضطرب لها كل كيانها:
من هو؟ كيف دخل الى مكان الذي لا يجرؤ أحد الوصول اليه؟ماذا يريد منها؟ أسئلة كثيره ازدحمت في بالها لكن ما طغا على فكرها هاجس واحد يتعلق بشرفها
غريزيا القى الله تعالى في صميم فطرة المرأة الحياء والحفاظ على عفتها..
فكيف بمريم المطهرة والمصطفاة لذا فكل مخاوفها تمثلت في لأعز ما لديها شرفها ومعه دينها الذي شغل تماما من هول ما ترى.. لكنها

تمالكت مشاعرها المضطربة واستحضرت كل شجاعتها التي ورثتها من آباءها..
لتقول لزائرها التي رأت فيه علامات الصلاح.
((إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا)) مريم 18
لقد استعاذت بالله منه إن كانت له صفة التقوى فإن حرمة لا يقدسها الا ممن يخاف الله ويرعى حرمه..
(نحتاج في بعض الأحيان أن نذكر من نتوقع منه شرا مع وجود امارات خير فيه أن نذكره بتلك الجوانب الخيّرة في شخصة كي يستعيد الفطرة بداخله ويخشى ربه ويستيقظ ضميره ولو بمقدار ضئيل نساعده على نفسه لردعها أو الإحجام عمّا تهم بفعله وهذا مهم في المواقف الحياتية المشابهة)
((قال إنما أنا رسول ربك))
فتطمئن ويسكن روعها وتشعر بقدر كبير الهيبة والإجلال

ولكنها كانت على موعد مع مفاجأة كبرى أصابتها بالذهول **((لأهب لك غلاما زكيا))**
فتتساءل ببراءة **((قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا))**
تساءلت بمنطقية وبتساؤل العقل البشري الذي يربط الأسباب بمسبباتها الطبيعية فالطريق الطبيعي للولادة هي باقتران المرأة بالرجل وهذا الاقتران إما يكون شرعيا أو غير شرعي ولا سبيل ثالث..
ويقطع الملك الكريم تساؤلاتها المشروعة تلك والتي لاوجود لها أمام قانون إلهي مختلف
((قال كذلك قال ربك هو علي هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا)) مريم 21
وبروح راضية تسلّم لأمر الحق (تبارك وتعالى)

لكنها لم تستطع أن تمنع فكرها وهو يسأل السؤال الكبير: ماذا بعد ذلك؟ كيف ستواجه مجتمع مريض مشكك كمجتمع بني إسرائيل بأمر كهذا؟

لقد كانت مريم المقدسة تمر بتجربة نفسية بالغة الحساسية..

من خلال ملاحظة الملابسات الاجتماعية التي واجهتها مريم وتتمثل ب:

1. ان مريم العذراء لم تكن تمتلك أي تجارب حياتية سابقة..لم تكن تختلط بالمجتمع الا نادرا.. ولم تكن تعرف من الرجال غير زكريا زوج خالتها وكفيلها فكيف بها وهي تتعرض لأقصى درجات العلاقة بين الرجل والمراة..فأن تحمل المرأة من رجل فهي خاتمة المطاف بالنسبة لعذرتها وعفتها..

2. ان بني إسرائيل قوم سوء يفترضون سوء النية في الغير ويتعاملون بالظنون وكأنها حقائق..ولم يسلم من سوء ظنهم وظلمهم حتى نبيهم الكريم (موسى).

3. ان وضع المرأة في المجتمع بشكل عام وفي كل زمان وضع معقد وصعب..فهي دائما مدانة حتى يثبت العكس في حين أن الرجل يتمتع بالبراءة حتى تثبت ادانته..واضطهاد المجتمع للمرأة لا يختص بمجتمع دون آخر وإن لبس عباءات مختلفة..فمريم وبكل براءتها وطهارتها عليها أن تواجه مجتمعا وإن كان يقر رأيه العام بعفتها ويضرب بها المثل الا إنه لا يخرجها من حساباته السيئة.

4. إن جوهر قضية ابتلاء مريم أن المجتمع أعطاها حصانة أخلاقية مميزة رقت بها عن الشبهات..والمجتمع متى ما أعطى تلك الحصانة لأحد أفراده فإنه يضعه تحت مجهر دقيق يحسب عليه كل حركاته وسكناته فيضعه دوما على طاولة التشريح..

وقد اشتهر المجتمع الإسرائيلي بالتشهير والقدح بأنبياء الله وأولياءه..وكان هذا هو أحد هواجس مريم المقدسة.

بلحاظ ما تقدم فقد عاشت مريم المقدسة ساعات عصيبة وهي تحس بالجنين المبارك يتحرك في أحشاءها بعد أن نفخ جبرئيل (ع) في جيب درعها..
جُل تفكيرها كان في كيفية مواجهة الناس..وماذا تقول لهم؟..وهي تعرف مسبقا أن لا أحد يستطيع إدراك ماحدث..لذا فإنها حرصت بأقصى ما تستطيع أن لا يراها أحد طيلة مدة الحمل التي اختلف المفسرون بمدتها وكيفيتها..

(6)

((فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا))23 مريم

لقد تمنت الموت قبل أن تاتي هذه اللحظة التي تكون فيها محل تهمة أو شبهة.. هو درس أعطته السيدة العذراء لبنات جنسها كي يدركن مدى صعوبة وقسوة تلك اللحظة..
وحين تصل مريم الى أقصى درجات خوفها وقلقها وآلامها ووحشتها وإنقطاع السبل بها وبعد أن تستنفذ كل ما ليها من طاقة بشرية..يأتي فرج ربها الكريم الذي وعدها ولن يخلف وعده..يأتي الفرج ودائما من حيث لا تحتسب..

(7)

((فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سريا*وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا*فكلي واشربي وقري عينا فإما ترين من البشر أحدا فقولي إني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا)) 24 – 26 مريم

هنا لابد من وقفتين:

الأولى: وقفة نفسية عنوانها الرفق بالنفس في الأوقات الحرجة أو الحزينة، فالنداء الالهي جاء ليهدأ من روع مريم ويطمئنها ويجبر خاطرها وعليها أن ترفق بجسدها ولا تحمل نفسها فوق طاقتها،
عبارة **(فكلي واشربي وقري عينا)** في مثل اوضع مريم النفسي وهواجسها وخوفها المشروع يحمل دلالات غاية في الرقة والرحمة وفيه اشارة الهية لمريم إن الله معها سيخرجها من محنتها، وبالفعل مريم تلتقط الرسالة بروحها السامية وتطمئن روحها وتسكن وتتبدد مخاوفها يكفيها أن الله معها..
الوقفة الثانية:
مع العبارة المباركة (وهزي إليك بجذع النخلة) فيه دلالة على بذل الجهد كقانون ثابت من قوانين العيش في هذه الدنيا.. بذل الجهد ولو بمقدار الجهد البسيط المهم أن يسعى الإنسان بتحصيل الأسباب المادية الظاهرية.. الله يريد أن يكون المؤمن قويا ومتوكلا لا يريده شخصية اتكاليه ينتظر حدوث المعجزات دون جهد، كان من المتعذر على مريم بالضعف الجسدي الذي هي عليه.. أن تهز نخلة مثمرة.. لكنه درس على بذل الجهد بإخلاص ولو كان يسيرا لأن الغاية في النية وصدق التوكل يبقى الأمر لله تعالى من قبل ومن بعد..

(8)

((قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا*وجعلني مباركا أين ما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا*وبرا بوالدتي ولم يجعلني جبارا شقيا*والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا)) 30-33 مريم

قال إني عبد الله:
أولى كلمات عيسى بن مريم (عليهما السلام) كانت إقرار بالعبودية لله تعالى وكأنه يعلم بما يؤول إليه الأمر حيث سينحرف قومه

ويفتنون به ليتخذوه إلها أو ابنا أو شريكا (تعالى الله عما يصفون) لقد كانت أولى كلمات عيسى (عليه السلام) تعريفا به وبرسالته وبعقيدته وبخلقه.

(9)

((إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلا وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذني وتبرئ الأكمه والأبرص بإذني وإذ تخرج الموتى بإذني وإذ كففت بني إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين)) المائدة: ١١٠

الملاحظ تكرار اللفظ المبارك (بإذني) في دلالة على أي تصرف خارق للعادة هو بإذن الله لسد أي ثغرة يمكن ان ينفذ منها فكر منحرف فيعطي لعيسى (عليه السلام) استقلالية في الآيات التي حدثت والتي ستحدث خصوصا ونحن نتكلم عن قوم خبروا النفاق وأتقنوه اتقانا كما لم يتقنه غيرهم...

أما التذكير بنعم الله تعالى وإن كان موجها لعيسى لكنه موجه أصلا لكل العالمين بما فيهم اليهود الذي يعتبر إرسال عيسى نعمة من أكبر نعم الله لهم..تلك النعمة التي رفضوها كعادتهم وجحدوا بها..وأخذوا يحيكون المؤامرات للكيد مبكرا بالنبي المخلّص الذي لطالما ذرفوا الدموع لانتظار ظهوره.. وحين جاء بما لا تهوى أنفسهم..ناصبوه العداء..

(10)

((فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون* ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين))52 آل عمران

إن مسألة تكوين الجماعة المناصرة الصالحة للرسالة مسألة غاية في الأهمية بل إنها تشكل في مرحلة ما من عمر الرسالة أمر ضروري لاستمرارها ونشرها..لكن السؤال هو عن كيفية تكوينها.. ما الذي يجعل أفئدة أناس تتفق على نصرة العقيدة مع كل عوامل الاختلاف وأحياناالتناقض بينهما..؟

الى أي مدى يستطيع النبي المرسل أن يختار تلك الجماعة..وماهي معايير ذلك الاختيار؟

لماذا لم يتمكن بعض الأنبياء في تكوين الجماعة الصالحة ومنهم نبي الله موسى (عليه السلام) بكل عظمة الكليم وسمو مكانته؟

قبل ذلك:

ماهي فلسفة وجود تلك الجماعة وأهميتها والخصائص الذاتية لأفرادها؟

إن الأسئلة المتقدمة أثارتها في الأذهان

الآية المباركة **((وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون))** المائدة 111

من مستلزمات العقيدة دستور عمل الهي وهذا الدستور بحاجة الى تطبيقات عملية لتطبيق المنهج.. فالنصوص النظرية المقدسة بحاجة الى مجال تطبيقي كي تستوعبه الأذهان وكي تكون حجة دامغةعلى بعض المنافقين الذين يدعون بمثالية الأحكام الشرعية وعدم قابليتها للتطبيق..

الأمر يقتضي وجود نماذج بشرية تكون محلا لتطبيق تلك الأحكام ومساعدة على نشرها..فوجود الجماعة الصالحة المؤمنة المؤهلة والمعدّة روحيا لأن تشكل القاعدة والنواة لمجتمع الإيمان..وتكون حاضنا مناسبا للرسالة وحماية المرسل..

ويبقى الأمر الاساس أن الله (عز وجل) ينصر رسله بجماعة صالحة أم بدونها فإبراهيم كان وحده وكان أمة فالعبرة بمن يحمل المبدأ..

ومبادئ الله تنتصر بالناس وبدونهم والله غالب على أمره.
إن الحواريين جماعة النبي عيسى الصالحة لم يكونوا كلهم بالمستوى المأمول أوالمطلوب فلم يتمكنوا من حمل الأمانة كما يجب.

(11)

((إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مآئدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين* قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين*قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مآئدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين*قال الله إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين))115- 112

بعض الحواريين سألوا هذا السؤال الساذج (ينزل علينا مآئدة من السماء) مائدة! ربما كانوا يربطون ذهنيا بين مائدة مريم التي كانت تكرمها بها السماء الذي يؤكد أن العقلية البسيطة والسطحية المشككة لازالت مترسخة في نفوسهم والأغرب الصيغة غير المؤدبة ((هل يستطيع ربك)) وكأنهم ينسفون أساس الإيمان وهي الثقة بقدرة الله (عز وجل) الأمر الذي ناسبه توبيخ نبيهم لهم أما التبرير الذي ساقوه فهو أغرب من الطلب وفيه تأكيد للنزعة المادية التي يعتنقها اليهود لقد أرادوا شيئا ماديا يلمسوه بأيديهم أو يأكلوه.. كي يصدقوا نبيهم وكأن كل الآيات التي جاء بها لم تثبت صدقه لا الولادة المعجزة ولا التكلم في المهد ولا إحياء الموتى ولا إبراء الأكمه ولا خلق الطير بإذن الله تعالى كانت كافية إثبات ذلك الا بمائدة يأكلون منها..
لكن عيسى (عليه السلام) وبكل حكمة يعطي لطلب الحواريين بعدا روحيا بأن يجعل من المناسبة عيدا وطقسا عرفانيا وشعيرة من شعائرالله تعالى يعظمها هذا الجيل والأجيال اللاحقة..

وينزلها الله تعالى إكراما لنبيه الكريم واقامة للحجة الكاملة على بني اسرائيل ولكن مع انذار شديد ونهائي ومن شدة هذا الإنذار يتبين لنا حجم خطأهم فيما طلبوا والطريقة غير المؤدبة في التعامل مع القيم الألهية..

فيأكلوا منها أياما طويلة ولكن هل اطمأنت قلوبهم؟ هل صدقوا بنبيهم؟ ربما البعض كان كذلك....

الخاتمة

عزيزي القارئ.. إن ما قرأته في هذا الدرس:

- ✓ ليس تفسيرا لآيات الله بقدر ما هو تدبرا وتأملا فيما قاله المفسرون وهو بهذا أقرب الى الفكر منه الى المادة العلمية.
- ✓ إنه محاولة للعودة الى كتاب الله العزيز ليكون المصدر الرئيس لقصص أنبياءه ورسله (عليهم السلام) بعد أن اتخذت قصصهم مادة سردية درامية اختلط فيها الحق والباطل وتعرضت السير المباركة لكثير من الإسفاف فوتت على المتلقي أن الهدف القرآني ليس سرد قصة هذا النبي الكريم أو ذاك بقدر ما كانت تأكيدا لمبنى عقائدي أو نهج فكري أو جانب تعبدي أو عبادي أو منهج حياتي.
- ✓ حاولنا قدر ما نستطيع احترام فكر القارئ وقراءة أفكاره ونحن نسجل تأملاتنا ليكون هذا الكتاب نافذة تفتح آفاقا لقراءة متأملة متدبرة....

نسأل الباري (عز وجل) أن يتقبل هذا العمل عملا خالصا لوجهه الكريم...

والله المسدد.

الحمد لله رب العالمين

E-KUTUB
Publisher of publishers
No 1 in the Arab world
Registered with Companies House in England
under Number: 07513024
Email: ekutub.info@gmail.com
Website: www.e-kutub.com
Germany Office
Linden Strasse 22, Bruchweiler 55758/
Rhineland-Palatinate
UK Registered Office:
28 Lings Coppice,
London, SE21 8SY
Tel: (0044)(0)2081334132

In the Qur'an school, (Part 1),
Stories of the Truthiness
BY:
Jawad Al-Hajj

لقد تعرضت قصص الأنبياء والمرسلين (عليهم السلام) لكثير من التسطيح وأدخلت في ثناياها العديد من الأخبار غير الصادقة وتفاصيل مبالغ فيها فيها حط من منزلة رسل الحق وذكرت أمور لا تستحق الوقوف عليها في حين تم تخطي الكثير من الدروس والعبر الجديرة بالاهتمام...

حاولنا في هذا الكتاب قراءة قصص الأنبياء والمرسلين (عليهم السلام) كما ذكرت في كتاب الله المجيد في آياته المباركة من خلال وقفات تأمل بقدر ما وفقنا الباري (عز وجل) مستأنسين بآراء العلماء الذين شرّفهم الباري (عز وجل) في بحث السير المطهرة لرسل الله..

ولا يخفى أن هناك فارق كبير بين المفهوم القرآني للقصة وبين الفهم البشري لها، ذلك أن القصة في القرآن ترتبط بالهدف وليس سرد الحدث لذا نجد تكرر نفس الحدث في آيات متعددة وكل آية كريمة تسلط الضوء على بُعد مختلف لتعطي رؤية جديدة.

أن كل قصة من قصص الأنبياء (عليهم السلام) كانت تسلط الضوء على ظاهرة أو أكثر من ظواهر الانحراف والفساد.. في دروس احتوت أقصى درجات التعليم والعبرة.. منظومة من الأخلاقيات الإلهية يجسدها النبي المرسل...والأحداث الحرجة التي تمر بها الرسالة هي مواقف ليست أسيرة لحظتها بل هي مواقف قد نجدها تتجسد هنا وهناك من حياتنا..والتصرف المثالي إزاءها هو تصرف النبي والمرسل.

eKutub
9 781780 587462

ألوف الكتب، لكل وقت، ومن أي مكان